بيترو بارتولو . ليديا تيلوتّا

دموع الملح

قصة طبيب





منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة

ترجمة: محمد أ. جمال



دموع الملح

قصّة طبيب

مكتبة
t.me/t_pdf
2022 11 20



تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-64-9

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2020

2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +









بييترو بارتولو ليديا تيلوتّا

بالتعاون مع

جاكومو بارتولو



دموع الملح
قصّة طبيب

الترجمة من الإيطالية إلى الإنجليزية

تشين-شين جيانغ

الترجمة من الإنجليزية إلى العربية

محمد أ. جمال



المحتويات




MOHAMED KHATAB


MOHAMED KHATAB



لآبائنا،

جياكومو وغاسبار

لأُمّهاتنا،

غراتسيا ونوسيا

للأمّهات والآباء والأبناء والبنات،

الذين لا يطلبون إلّا مكاناً يعيشون فيه ويكبرون.


MOHAMED KHATAB

بحرُنا[1]

المياهُ مثلّجة، ينخرُ البردُ عظامي. أركض من أحد طرفي الزورق إلى الآخر، أبذل قصارى جهدي محاولاً إنقاذ الموقف، بلا جدوى. لا تزال المياه تملأ الزورق.

فجأةً، وقبل أن أُدرك ما يحدث، أنقلب في المياه. ظلمة الليل حالكة، وأنا خائف. عمري ستة عشر عاماً، حسبتُ أني لا أُقهَر، كيف حدث هذا؟ أُدرك أني على وشك الموت.

معظم الذين على القارب نائمون. ولا يبدو أن أيّاً ممن كان على الدفّة يلاحظ أن الزورق الملحق قد فقدَ حمولته. أزدادُ رعباً. نبعد عن لامبيدوزا أربعين ميلاً، إن لم يسمعوني الآن فسيذهبون بدوني، تلك ستكون نهايتي. لن يُدركوا غيابي قبل بلوغهم المرفأ. ليست هذه الطريقة التي أحبُّ أن أموت بها، ليس وأنا في السادسة عشرة، ليس وأنا مرعوبٌ.

---

(١) عنوان الفصل الأصلي هو Mare nostrum، الاسم الذي أطلقته الإمبراطورية الرومانية على البحر الأبيض المتوسط، وهو تعبير لاتيني يعني حرفياً (بحرُنا). [المترجم]

يسيطر عليَّ الهلع، أشرع في الصراخ بأعلى صوتي، أركل البحر بجنون لأمنعه من ابتلاعي. يمنحنا البحر الأبيض المتوسط الحياة، نحن الصيادين، لكنه عندما يقرِّر أن ينقلب علينا، يهجرنا، يتحول لوحشٍ قاسٍ عديم الرحمة. «أبي»، أصرخ بهيستريا، «أبي»، يُمسك أبي الدفة ولا يسمعني. أتيقّن أن هذه هي النهاية، لكني أصرخ مرةً أُخرى حتى تكاد رئتاي أن تنفجرا. ثم حدثت المعجزة: التفت أبي، لمحني. رأى ذراعيّ تضربان المياه، سمع صراخي المتحشرج اليائس. أدار القارب وعاد لينقذني.

ينادي أبي على الآخرين ليوقظهم، وبسرعة صار سطح (الكينيدي) مضطرماً بالنشاط. يُقلق سطح المياه حراكَ البحارة المتدافعين لإنقاذي، أخيراً يتمكّنون من انتشالي. أشعر بالبرد والمرض، أتقيّأ مياهاً مالحة، أرتجف، أبكي كطفلٍ صغير. يحتضنني أبي بقوة، يفعل ما بوسعه لتدفئتي. انتهت رحلة الصيد. رغم عودتنا خاليي الوفاض، أنقذنا حياةً. حياتي.

في البيت، كوخ الصياد المتواضع، لم أتحدَّث لأيام، رغم أني لم أكن قبلها فتى هادئاً. أنا الذي لم يكن بوسعي الجلوس ساكناً للحظة، لا أكاد الآن أتحرك، ولا تنبس شفتاي ولو بكلمة. لأول مرة في حياتي أفهم معنى أن تحدّق في وجه الموت.

ما لم أعرفه حينها، كان أن هذه الليلة ليست الوحيدة التي ستعلق في ذاكرتي إلى الأبد. سيترك ذلك البحر المتقلب، الذي يبصق علينا الأجساد الحية والميتة طوال الوقت، الندوب على كل فصول

حياتي. يوماً ما، ستصبح وظيفتي هي محاولة إنقاذ الأحياء منهم، وأن أكون آخر من يلمس الموتى أيضاً.

الآن، كلما ذهبتُ إلى المرفأ لأرى رجلاً أو امرأة أو طفلاً، مبتلّين حتى النخاع بالمياه المثلجة، بعيون تطلّ منها معاني الخوف كلّها، أتذكر تلك الليلة، عندما كنت في السادسة عشرة. أحياناً تعود تلك الذكرى لتُقلق منامي، لكني راكمت خلال العقود الثلاثة السابقة، التي انقضت منذ تلك الليلة، المزيد من الكوابيس المؤلمة. وأخشى أن لا يزال أمامي الكثير في الطريق.

في محاولة لطبخ وجبةٍ ساخنة أخيرة قبل العبور الطويل المرتقب، حاولَت أمينة ورفيقاتها من النساء بناء فرنٍ مرتجل، عبر وصل أنبوب بأسطوانة غاز. لكن النيران انفجرت في الاتجاه المعاكس، ولم يستطعن الهروب. غطت الحروق تسعين بالمئة من أجسادهن. كان مشهداً مروعاً، لكنه لم يزرع أية شفقة في قلوب المهرِّبين الليبيين. فقد أجبروا النساء على ركوب طوف أطلقوا عنانه في البحر. ظللن يتعذَّبن من الألم حتى التقطتهن قوات الحرس المالي[1].

لم يعرف عمال الإنقاذ كيفية لمس النساء ورفعهن لقوارب الدورية دون التسبب لهن بمزيد من الألم. رغم ذلك، لم تخرج منهن آهة ألم واحدة أثناء حملهنَّ إلى الشاطئ.

---

(١) Guardia di Finanza: نوع من الشرطة العسكرية الإيطالية تتبع وزارة المالية والاقتصاد، تعنى بمهام مكافحة التهريب والاتجار بالمخدرات والجرائم المالية. [المترجم]

لم يكن بوسعي تصديق عينيّ. بالنظر إلى حجم الإصابات، لم أعرف من أين أبدأ. كل قاربٍ جديد قادم يأتي محملاً بتحديات جديدة، لم تكن توقعاتنا قادرة على مجاراة المفاجآت التي لا تنفك تحلُّ علينا. كل مجموعة من المهاجرين تحتاج إلى علاج مختلف، إلى رعاية خاصة مختلفة لم نكن جاهزين لتقديمها.

هذه المرة، كنّ ثلاثاً وعشرين امرأة، ماتت صبية ابنة التاسعة عشرة منهن متأثرة بإصاباتها. أصغرهن كان عمرها عامين، لم تسلم بقعةٌ في جسدها من النيران. بذلتُ قصارى جهدي كي لا أؤلمهن، لكن جلودهن كانت تتقشر مُعريّة اللحم الحيّ أسفلها. كنّ بحاجة للنقل فوراً إلى مستشفى في باليرمو أو كاتانيا، حيث يمكنهنّ تلقي الرعاية التي يحتجن إليها. لم يكن لدينا، هنا في لامبيدوزا، ما يكفي لنقدمه لهن. سابقت الطائرات المروحية الزمن تحمل المرضى للمستشفى. في النهاية، بعدما حملت آخرُ طائرة آخرَ امرأة، تنفَّسنا الصعداء. فعلناها مرة أخرى... تقريباً.

بعد بضعة أيام، وبينما كنت أتمشّى في شارع لامبيدوزا الرئيسي (فيا روما)، أفكر في أولئك المريضات. أوقفني أخصائي اجتماعي وأخبرني عن الرجل الوحيد في ذلك القارب، والذي يستقبله الآن مركز استقبال اللاجئين القريب. تذكَّرتُه أيضاً، سليماً معافى، يحمل رضيعاً بين ذراعيه. حسبتُ ذاك الطفل ابنه، لكن الأخصائي الاجتماعي أخبرني أن ذلك الطفل لواحدة من النسوة اللواتي عانين من الحريق. مرَّت أيام عدة، وما زالوا خائضين في بحر البيروقراطيين، محاولين معرفة أيهنَّ كانت أمه.

اشتطت غضباً، ولجنا في سيارة وانطلقنا باتجاه مركز الاستقبال. لو كانت أمُّه قد خرجت بالفعل من المستشفى وأُرسلت لمكان آخر، ربما لن يكون بوسعنا إعادة طفلها إليها.

بما أننا لم نعرف له اسماً، فقد أطلقنا عليه (جوليو). تحدثنا مع الرجل الذي كان يحمله يوم جاءنا القارب، ووصف لنا شكل أم جوليو. تأكدنا أنها كانت واحدة من النساء اللواتي أرسلناهن لباليرمو، شرعنا فوراً في عمل ما يلزم لجمعهما معاً. وبعد عدة ساعات، كان إيفان في حضن أمه.

اسمه الحقيقي كان إيفان.

حذاء أحمر وحيد



حذاء أحمر وحيد في فافالورو بيير. كانت هذه الفردة الوحيدة ملقاة مثل غيرها من الأشياء الكثيرة المتناثرة كحصى في ممرٍّ إلى اللاشيء، ينقطع فجأة مثل أمل المهاجرين في الوصول إلى شاطئ عالمٍ مختلف.

تظهر هذه الأحذية في كوابيسي، وكذا تفعل السلاسل والعقود والأساور التي تزين أجساد من أفحصهم. تتضمن وظيفتي فكّها ونزعها، قطعةً إثر قطعة عن الأجساد المنتفخة داخل حقائب الموتى الخضر.

عندما كنا أطفالاً، لم أرتدِ قط أنا أو أيّ من أصدقائي أحذية. باطن قدم متخشب كان أكثر من كافٍ. ذهبنا إلى المدرسة حفاةً، ذهبنا للصيد حفاةً، لعبنا في شوارع لاميدوزا حفاة.

الجزيرة كانت موطئ أقدامنا الوحيد في قلب البحر الشاسع. جميلة جمالاً يحبس الأنفاس، بعيدة عن كل شيء بعداً يقطع الأنفاس.

لامبيدوزا صخرة، تصيب كل من يخطو عليها بحنين لإفريقيا. تجذبك كمغناطيس، تسحرك مثل سيرسي[1].

هكذا، لم نرتدِ أحذيةً إلا في المناسبات الرسمية.

ولم تزخر لامبيدوزا بهذه على أي حال. ففي الحقيقة، كانت المناسبات الرسمية شبه منعدمة. لكن إحداها سيغيّر مستقبل الجزيرة: افتتاح المطار المدني الوحيد. كان يوماً هاماً لدرجة أننا أُمِرنا أن نرتدي أحذيتنا المقيتة لحضور مراسم الافتتاح، بحضور وزير جنوب إيطاليا (باولو إيميليو تافياني)، الذي أخذ على عاتقه مهمة بناء مطار للجزيرة، بعد احتجاج مواطنيها الجماعي عبر الامتناع عن التصويت.

خرجنا من المدارس في طوابير، في مآزر مكوية، يصحبنا معلمونا. كان يجب أن يكون كلُّ شيء في حالة مثالية. لسوء الحظ، اكتشفت في منتصف الطريق، أني أضعتُ فردة حذاء. تركتُ موقعي في الطابور وجريتُ لاستعادتها، هرعَت خلفي معلّمتي. لم تترك لِي فرصةً قط لأستمتع فيها بممارسة لحظة تمرد. لكنني لم يكن من الممكن أن أعود للمنزل بفردة حذاء ضائعة، كان ذلك حذائي الوحيد، ولم يكن في مقدرتنا شراء آخر. بعد وهلة، عدت لموقعي في الطابور مرتدياً كلتا الفردتين، ووصلنا المطار.

(١) سيرسي Circe: ساحرة من الميثولوجيا اليونانية القديمة، تشتهر بقدرتها على تحويل الرجال إلى حيوانات. [المترجم]

كانت المراسم مهيبة، إلى حد يجعل المرء يظن أن لامبيدوزا منخرطة في صراع لأجل البقاء. بمرور الوقت أدركتُ أن هذه بالضبط هي الحقيقة. كان الناس في لامبيدوزا يموتون من مضاعفات نزلات برد اعتيادية. السفر عبر البحر يحتاج لساعات، وغالباً ما كانت العبّارات في الشتاء ترسو لأسابيع في المرة الواحدة دون إبحار. من حين لآخر كنا نرى طائرة الطوارئ البرمائية من نوع غرومان، لكن هذا كان يحدث نادراً. وبعد إيقاف خدمة غرومان اعتمد الناس على الطائرات الحربية بدلاً منها، لكنهم كانوا يستغرقون ساعات لبلوغ لامبيدوزا، وعادة ما يكون وصولهم متأخراً.

عندما عدتُ إلى لامبيدوزا في ثمانينيات القرن العشرين، بعد دراسة الطبّ والتخصص في طبّ النساء والتوليد، شعرتُ أن كل هذا يجب أن يتغير. شجعني العمدة، الذي عرفني في صغري ورأى فيّ ناصحاً سياسيّاً مُحتملاً، على الترشح لمنصب في الحكومة المحلية الساعية إلى التطوير الذي تمنّيته. وبالفعل، عُيِّنتُ في منصب نائب العمدة ومستشار الصحة. السنوات الخمس التي تلت هذا كانت الأكثر حدَّة في حياتي، حاربتُ خلالها لتحصل لامبيدوزا على طائرة إسعاف. وقمتُ برحلات متكررة إلى باليرمو، حتى اضطرت الحكومة الإقليمية للموافقة على صرف الستة ملايين ليرة التي تحتاجها الخدمة لتنطلق.

كانت هذه خطوة ضخمة إلى الأمام، أخيراً صار بوسع أهل لامبيدوزا الوصول إلى المستشفى بسرعة، وصارت عزلتنا أقل وطأة.

لكن في البداية، لم يكن على متن الطائرة طبيب، وكنت أضطر لمرافقة المرضى في الرحلات بشكل تطوعي، إلى أن توفرت لنا الإمكانيات أخيراً لتعيين طبيبٍ للطائرة. لكنَّ حلَّ الطائرة لم يكن مثالياً، لأنه لا تتوفر لها سُبل الهبوط على الجزيرة الجارة (نموشة)، وبالتالي يظل سكانها محرومين من العناية ظلماً. بعد بضعة سنوات، استُبدلت الطائرة بأخرى مروحية.

انتهت مدّتي كنائب للعمدة في ١٩٩٣، لكن صراعي من أجل تحسين النظام الصحي للاميدوزا ونموشة لم ينتهِ.

أمور لا تعتاد عليها

أحياناً أفكر أني لم يعد بوسعي التحمل أكثر من ذلك. لا أقدر على تحمل إيقاع العمل، والأهم، لا استطيع التعامل مع كل هذا القدر من المعاناة والألم. الكثير من زملائي الأطباء يظنون أني صرتُ معتاداً على مثل هذه الأمور، يظنون أن تشريح الجثث صار فعلاً روتينياً حتماً. هذا ليس صحيحاً؛ أنت لا تعتاد أبداً على رؤية أطفالٍ موتى أو نساءٍ لقينَ حتفهنَّ أثناء الولادة على مركبٍ يغرق، أطفالهنَّ الصغار متدلّين منهنّ بالحبال السرّية. لا تعتاد أبداً على مهانة قص إصبعٍ أو أذنِ جثة، لتحليل شفرتها الجينية، حتى يصير للضحية اسمٌ وهوية وليس مجرد رقم. في كلِ مرة أشقُّ فيها حقيبةً خضراء، أشعر وكأني أفعلها للمرة الأولى. كلُّ جثّةٍ تحمل علامات رحلتها الطويلة المؤسفة.

يحسب الناس العقبة الرئيسية في حياة اللاجئين هي اضطرارهم لعبور البحر. لكن هذه ليست إلا العقبة الأخيرة. باستخدام مزيجٍ من الإيطالية والفرنسية، وبالاستعانة بمترجم يعمل في مركز لامبيدوزا

لاستقبال اللاجئين، قضيتُ ساعاتٍ مستمعاً لحكاياتهم. عن هجر البيت والبلد، وعن الصحراء: يقولون إنها جحيم، لن يمكنك فهمه إلا إذا رأيته بنفسك. الحرارة خانقة، يُزجُّ بك في شاحنةِ نصف نقل صغيرة، إن ارتكبتَ أي خطأ، حتى لو كان من قبيل الجلوس بطريقة غير صحيحة، يُلقَى بك خارجها وتُترك لتموت. وعندما تنتهي المياه، ليس لك إلا شرب بولك. في النهاية تصل إلى ليبيا، تحسب الكابوس قد انتهى، لكنه في الحقيقة بدأ للتو: معاملة سيئة، سجن، تعذيب. إن استطعت بشكل ما النجاة من كل هذا، تصعد على متن القارب. حينها فقط، إن لم تمت في البحر الواسع واستطعتَ الوصول إلى وجهتكَ النهائية، بوسعك أن تأمل في حياة ربما تبدأ من جديد.

في لامبيدوزا، رأيت كل شيء.

ذات صباح، رأيت في المرفأ ما جعلني أتراجع مأخوذاً. امرأة متألقة تترجل من زورق آلي، كانت من غامبيا، ترتدي فستاناً ملوناً، وتحمل حقيبة سفر وكأنها تنزل من قطار. بدت أنيقة فخورة، كمن تخلَّص من كل مشاكله وقد مضت بلا رجعة. تابعتُها تختفي في حافلة مركز استقبال اللاجئين، ملأتني رغبة للَّحاق بها وسؤالها عن ماضيها المؤلم والأمل الذي تراه في المستقبل. لكني تذكرت الواقع الذي عليّ فيه أن أكمن حيث أنا وأتابع وظيفتي. انعطفَت الحافلة واختفت عن ناظري.

قابلتُ عائلات فلسطينية حسبوا أنهم وجدوا في سوريا ملجأً

من الحرب المشتعلة في وطنهم، وبدلاً من ذلك علقوا في حرب جديدة اضطرتهم لبدء الدورة من جديد. رحلة جديدة، محنة جديدة.

الأسر السورية كانت غالباً أكثر مرارة من جميع اللاجئين. أولئك أُجبروا على المغادرة بلا إنذار مسبق، تركوا بيوتهم وحيواتهم، وربما لن يستعيدوها أبداً.

عندما بلغ أول المهاجرين سواحل لامبيدوزا قبل عشرين عاماً، أطلق عليهم أهل الجزيرة لقب (الأتراك). كان أغلبهم من سكان شمال إفريقيا، رسوا على شواطئها بالقوارب الصغيرة والأطواف، جاؤوا بأنفسهم دون الحاجة لمهربين. حينها، كانت تلك ظاهرة جديدة، وكانوا قلة. لكن بسرعة تغيّر كلُّ شيء. زادت أعداد اللاجئين مع زيادة أسباب هروبهم من بلادهم.

لهذا صرت بحاجة لمعونة أهل لامبيدوزا للقيام بوظيفتي. عندما يتملّكني القنوط، أعوِّل عليهم لإمدادي بالقوة التي أحتاجها للمواصلة.

نساء على الطريق

وصلت ياسمين في حاوية مكتظة بما يزيد عن ثمانمئة شخص. حتى أن بعضهم كانوا محتشدين فوق بعض، وكانوا جميعاً في حال سيّئ. عندما وصلوا الجزيرة، كانت ساعة مخاض ياسمين قد حانت. لم يكن هناك وقت لنقلها إلى باليرمو، لم تكن طفلتها لتنجو إن فعلنا. حاولت طمأنتها بينما أجري عليها تصويراً بالأشعة فوق الصوتية، أريتُها قلب ابنتها الصغير، التي كانت تعاني من ضائقة جنينية. قررتُ إجراء عملية بضع الفرج، وهي عبارة عن شق جراحي لمدخل الفرج الأنثوي، عملية خطيرة لكن لا بدّ منها. مرَّت الولادة بسلاسة وولدت ياسمين طفلة صغيرة. قرَّرت أن تسمّيها هبة.

من المبهج دوماً رؤية أم تبتسم بعد ولادة طفلها. لكن ما حدث بعد ذلك كان مفاجئاً. عندما خرجتُ من غرفة العمليات، تغطّيني الدماء، وجدتُ حشداً من الأمهات اللامبيدوزيات، وقد أحضرن لهبة كل ما قد تحتاج إليه: حفاظات وألعاباً وملابس.

في ذلك الوقت أدركتُ أننا بحاجة إلى إمكانيات أفضل للأطفال في العيادة. عادة ما يأتي بصحبة النساء الحوامل أطفال صغار، يراقبون الأطباء بخوف بينما يأخذون منهم أمهاتهم ويضعوهن في غرف مليئة بأجهزة غريبة. فكَّرنا في تجهيز غرفة لعب بسيطة بجوار غرفة الفحص، فيها الكثير من الألعاب التي تشغل الصغار وتروِّح عنهم في أوقات انتظارهم. نجحت الفكرة لدرجة أن الأطفال لم يرغبوا في الذهاب عندما يحين وقته، حتى مع إغرائهم بهدايا صغيرة لإخراجهم.

في ربيع ٢٠١٦، كان في أحد القوارب القادمة ثلاث حوامل، منهم امرأة نيجيرية اسمها (جوي). كانت في شهرها الرابع، ووحيدة، لأن المهربين أجبروها على الانفصال عن زوجها؛ إذ نُقلت بواسطة إحدى المجموعات وزوجها بواسطة أخرى، ولم يكن في مقدرة أي منهما الاعتراض. اغتصبها المهربون، وألقوها في قارب. ولم تسمع عن زوجها خبراً.

ناشدَتني: «أرجوك، ساعدني في البحث عنه. لا أحب أن يكبر ابني دون والده. لقد خاطرنا بكل شيء كي يولد في بلد أفضل. في إمكانك إيجاده، أرجوك، أتوسل إليك».

أحياناً، عندما أصير الشخص الوحيد الودود أمامهم، يشعر المرضى وكأني لست فقط طبيبهم، وإنما منقذهم الذي بوسعه استعادة أحبّائهم المفقودين وجمعهم بأُسرهم مرّة أخرى. للأسف الشديد، مثلما في حالة جوي، لم يكن هذا دوماً في إمكاني. في حالات

أخرى أكون الشخص الوحيد الذي يجدون في أنفسهم الشجاعة على الإفضاء إليه بنسخ غير مختصرة من تاريخهم الحزين. وكثيراً ما تطلب مني بعض المريضات، أثناء إجراء الأشعة فوق الصوتية، طلباً يكسر القلب: إجهاض جنينٍ لم يكن مجيؤه نتيجة لحب، وإنما لاغتصاب.

ذات يوم، جاءت نيجيرية عمرها سبعة عشر عاماً إلى العيادة. أخبرَتنا مراراً وتكراراً أنها ترغب في الموت. قالت لنا فتيات من اللواتي كن برفقتها في الرحلة، إنها حاولت إنهاء حياتها عدّة مرات. وفي جناح العيادة، رمت نفسها من فوق النقالة عدة مرات في محاولات مستميتة لإنهاء كل شيء.

أجرينا لها تصويراً بالأشعة فوق الصوتية أظهر أنها حامل في الأسبوع الثامن عشر. حاولتُ أن أريها الشاشة لكنها لم تقدر على التوقف عن البكاء. «لا تقلقي»، قلتُ لها، «سيكون كل شيء على ما يرام، سترين بنفسك». لكن من أنا لأواسيها؟

نظرت سارة في عينيّ مباشرةً، قالت: «أنا لا أعرف حتى من هو والد الطفل، اغتصبني خمسة رجال. تبادلوا الدور فوقي، وتوقفوا فقط عندما لم تعُد فيهم طاقة لتعذيبي أكثر. ما رأيك يا دكتور؟ ماذا الذي سيعنيه لي هذا الشيء في داخلي؟ الآن وإلى الأبد؟». أثارت حكايتها غضبي. يا لهم من رعاع.

لم أقدر على إدانة قرارها. تواصلت مع الأطباء والأخصائيين الاجتماعيين في الإدارة الصحية بباليرمو. ونُقلَت إلى هناك في طائرة

مروحية اليوم التالي. أجرت عملية إجهاض، والآن تتلقى الرعاية في ملجأ.

تخبرني كثير من الفتيات بمثل هذه الاعتداءات فقط لاحتياجهن للتخلص من عبء كتمان سرّ ليس بوسعهنّ مشاركته مع الآخرين. عادةً ما يطلبن إجهاضاً سريّاً، لأنّ إخبار الآخرين قد يؤدي لمضاعفة العار، أو لأن خوفهنَّ من تبرّؤ أُسرهنّ منهنّ إن وصلهم الخبر.

استقبل شاطئ لامبيدوزا عدداً لا حصر له من النساء الحوامل عبر السنين. ذات ليلة، وصلت خمس نساء في زورق آلي، منهن شابة في شهرها الثامن، تتألّم. لم يكن بوسعي نقلها للعيادة على الفور، لأني كنت مضطراً لفحص بقية اللاجئين. طلبتُ من زميلتي إيلينا، طبيبة ومترجمة في الوقت نفسه، أن تنقلها، وأخبرتُها أني سأتبعها وقتما أستطيع. «إجري عليها أشعة فوق صوتية فوراً»، قلت لها، «يجب أن لا تكون متألمة بهذا القدر».

بعدما أنهيت فحص البقية في المرفأ، ذهبتُ للعيادة. وجدتُ إيلينا تبكي حتى احمرّت عيناها.

قلت لها: «ماذا حدث؟».

قالت: «الفتاة المتألمة... أظن أنّ طفلها ميت».

ذهبتُ من فوري لغرفة الأشعة وفحصتُها مرة أخرى. إيلينا كانت على حق. فقد توقف قلب الرضيع عن النبض. لم ينجُ من الرحلة المُرهقة والضغط الذي تعرّضت له الأمّ.

تفهّمتِ الأمّ على الفور. لم يحمل وجهها أي فرح. لم نطلب منها أن تنظر للشاشة حينما نقلنا لها الخبر الحزين لترى الجسد الخامد الصغير. لم تقل شيئاً، أغلقت عينيها، وخرجت منها دمعة انحدرت على وجنتها، وبكت في صمت.

قررنا نقلها لباليرمو، طلبنا من الأخصائيين الاجتماعيين أن يراقبوها عن قرب، أن يساندوها، ويشعروها بالرفقة طوال الوقت. في المستشفى، استخرجوا الجنين بعملية جراحية، كان ولداً. عندما أخبروني بهذا شعرتُ بالسوء. لم نُخبرها بجنس الجنين أثناء إجراء الأشعة، لم نجد في قلوبنا شجاعةً لنفعل.

بعد خروجها من المستشفى، نُقلت الفتاة إلى ملجأ لاجئين لصغار النساء. لم أعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين.



جروح لا تستطيع رؤيتها

نشأتُ في بيتٍ عامر. كنّا سبعة أشقاء: خمس بنات وولدين. شقيقي (ميمّو) كان يبلغ عاماً ونصف العام من عمره عندما أصيب بالالتهاب السحائي. لم يكن من المعتاد حينها تشخيص المرض بسرعة قبل أن يتسبب في تداعيات طويلة الأمد. أُصيب مخ ميمّو بأذى بالغٍ اضطر معه والداي لأن يودعاه في مصحّةٍ عقلية. لم يكن هناك في لامبيدوزا من يعرف ماذا تعني فكرة الإصابة بمرض عقليّ.

كلما تعود أمي من زيارة ميمّو في المصحة بمدينة (جرجنت)، تبدو مهتزة وكأنها شخصٌ آخر. ذات يوم أصررتُ على الذهاب معها، أردتُ معرفة السبب الذي يجعل تأثير الزيارة عليها مؤلماً إلى هذا الحد. أخذتني، لكن عندما وصلنا تمنيت لو لم تفعل. كان أخي عارياً، مغطى بالكدمات والخدوش، يخطو ذهاباً وعودة في ما بدا لي طريقاً أبدياً نحو اللاشيء. عالمُه كان ظلمة بلا نهاية. لم تكن هناك ألوان، والأهم من ذلك، لم تكن هناك حرارة. أرضية المكان أقرب لمرحاض قذر، كل شيء كان مقرفاً، الملاءات مبقعة

والمراتب تعبق برائحة البول. لم يكن في المصحة أي أثر لشيء يدعى الكرامة الإنسانية. أما الأرواح المسكينة المقيمة هنا، فكانوا ينزلقون بلا توقف إلى أعماق جحيم خارجي يزيد عذابهم الداخلي بؤساً على بؤس. أصابني الرعب، تمنيت لو أخذتُ أخي بعيداً معي، لكني علمت أن هذا لم يكن بوسعنا.

في طريق العودة، فكرتُ طويلاً في ما شهدته، محاولتي للتصالح معه كانت صعبة. فهمتُ الآن لماذا كانت أمي تعود بملامح منكمشة على نفسها من فرط الألم، ملامح من لا يملك من الأمر شيئاً لينقذ الشخص الذي يحبه أكثر في هذا العالم: ابنه.

بعد معركةٍ قانونيةٍ طويلة، أغلقت المصحة العقلية أبوابها. استطعنا نقل أخي لدار رعاية في أراغونا. مَثَّل ذلك راحة بسيطة لي ولوالديَّ. لكن لسنواتٍ طويلة بعدها، ظلَّت الإساءة التي تعرض لها ميمّو تأكلني من الداخل مثل دودة الخشب؛ كان ذلك خطأً ليس من الممكن تصحيحه. تركني تحت شعور دائم ثقيل بالسوء.

في الجامعة، قررتُ أن أتعلَّم أكثر عن هذه الأشياء. قرأتُ كل شيء عن فرانكو باسغليا، الطبيب النفسي الفينيسي الذي حقّق ثورة في عالم العناية بالمرضى العقليين. أدركت أننا بحاجة لتوفير مكان في لاميدوزا للشباب والأطفال المصابين بمشاكل عقلية، مكان لا يشعرون فيه بالوحدة أبداً. حققنا الآن بعض التطورات في هذا الشأن، عبر افتتاح مركز لذوي الإعاقات العقلية يتلقّون فيه الرعاية الصحية والاجتماعية، والأهم من ذلك: يصيرون فيه جزءاً

من المجتمع، عبر ممارسة الألعاب والفن والهوايات، وقضاء وقت ممتع معاً. تأخذهم سيارات الميني فان في الصباح وتوصلهم للمركز. وعندما يسنح لي الوقت، أشاركهم إياه لبضع ساعات. التفكير أن مثل هذا الشيء الطيب نشأ نتيجة لمعاناة أسرتي، يريح قلبي. ربما في النهاية، لم تكن معاناة أمي بلا فائدة.

وظيفتي هي معالجة جراح الجسم وآلام الجسد. أفعل أقصى ما بوسعي بما يتوفر لي. لكن ما يضيق له صدري، أن لا يوجد علاج بوسعي وصفه، لا جراحة بوسعي إجراؤها، لشفاء الروح من معاناتها، لعلاج الجراح التي لا تستطيع رؤيتها.

نادراً ما نأخذ في الاعتبار الصدمات التي عانى منها أولئك الذين يقصدوننا لمساعدتهم، وهشاشتهم النفسية. دون وعي منا، نعالجهم ككائنات ذوي أنفس من نوع يختلف عن أنفسنا، نفس تستحق بشكل ما اهتماماً أقل. لكن في الواقع، الرعاية النفسية لمن هربوا من المجاعات والحروب هي أمر مصيري. استطيع استحضار لحظات عديدة، شعرت فيها أني بلا حول ولا قوة لمساعدة المرضى. حدث هذا من قبل وسيستمر في الحدوث.

ذات يوم قبل عدة سنوات، بلغ الشاطئ مئة وخمسون من صغار السن، في قارب واحد. فحصتُهم مثلما جرت العادة في المرفأ.

نفحص الأيادي عادة بحثاً عن الجرب، ثم نطلب من الرجال رفع قمصانهم وخفض سراويلهم لفحص أجسادهم، فالطفيليات قد تتخذ جحوراً في بشرة العانة أو الأرداف. كنت أفحص شاباً نيجيرياً

عمره ستة وعشرون عاماً. فحصت يديه وجعلته يرفع قميصه، لكنّي لم أستطع إقناعه بخفض سرواله. حاولتُ توضيح الموضوع بأن هذا أمر مهم، لكنه رفض هازّاً رأسه بعنف، بدا مرعوباً، وبدا إصراره غريباً. تركته وذهبت للعناية ببقية المرضى.

في الساعات التالية، لم يسعني إلا التساؤل بشأن هذا الشاب ورفضه المتعنّت. فكرتُ أنه ربما خجول لدرجة تمنعه من إظهار أعضائه الخاصة، لكن حتى لو كانت تلك هي الحقيقة، فإن سلوكه بدا غريباً على نحو خاص.

بعد يومين، طلبني الطبيب في مركز الاستقبال وقال إن أحد النزلاء بحاجة ماسة للقدوم للعيادة. لم يوضِّح أو يشِر لطبيعة المشكلة، لكن صوته كان قلقاً. أخبرته أني سأرى المريض، وأخذت في تحضير المعاملات الورقية اللازمة، بما فيها استمارة (الأجنبي المقيم مؤقتاً Straniero Temporaneamente Presente) التي تسمح للمهاجرين بتلقي خدمات الرعاية الصحية المجانية في إيطاليا. تدوم صلاحيتها لستة أشهر، ويمكن تجديدها لستة أخرى. كثير من المهاجرين يترددون في الحصول عليها، لا يرغبون في تسجيلهم رسمياً، لكني دائماً ما أقول إنها وثيقة لا غنى عنها، لأنهم لن يتلقوا العلاج في المستشفيات العامة بدونها. كلما سنحت لي الفرصة في مؤتمر أو ندوة طبية، أستغلها للتأكيد على أهمية تلك الاستمارة لزملائي.

بينما كدت أنتهي من آخر الأوراق، دخل من الباب شاب

صغير. كان الشاب نفسه الذي رفض السماح لي بفحص عانته. حيَّيته وطلبت منه خلع ملابسه، ولكنه احتجَّ مثلما فعل في المرفأ. قلت له إنه لا يمكنه الرفض هذه المرة، طالما أن مركز الاستقبال أرسله فلا بد أنه بحاجة لرعاية طبية. لكنه استمرَّ في الرفض، بدا مكروباً مرتبكاً.

لم أعرف كيف أفسّر سلوكه المذعور. ممَّ كان خائفاً؟ ماذا عليّ أن أفعل معه؟ بينما كان التوتر ينشر جذوره داخلي، فكَّ الفتى فجأةً حزامه، وأنزل سحاب سرواله، وخلعه.

تجمَّد الدم في عروقي، شعرتُ بالغثيان. عجزتُ عن النظر في عينه، لأني تأكدت أنه سيرى الرعب في عينيَّ. لم أعرف حتى ما عليّ فعله، ولا ما عليّ قوله.

تدلت خصيتا الفتى بين فخذيه، لكن فوقهما كان هناك ثقبٌ فقط، قضيبُه كان مقطوعاً تماماً. كان رجلاً تعيساً مخصياً.

صُعقت. سُلبت من الفتى، بينما لا يزال في السادسة والعشرين من عمره، كلُّ فرصة للحصول على حياة طبيعية. فهمتُ الآن لماذا كان يرفض نزع سرواله، ولماذا لم يجد الطبيب كلمات مناسبة يشرح لي بها طبيعة الحالة. لم أقابل مثل هذه الحالة قطّ في حياتي.

تمالكتُ نفسي ونظرتُ إليه. فضحَت عيناه دوامات المشاعر المضطرمة داخله، على رأسها الخزي الشديد من اضطراره للجلوس مقهوراً بجسد مشوّهٍ عارٍ. سألتُه ماذا حدث. صمتَ لدقائق قليلة، ثم وجد أخيراً القوّة الكافية للشروع في الحديث:

«كنتُ أعيش حياة طيّبة في نيجيريا. كنت على وشك الزواج من خطيبتي الجميلة. أحلامنا كانت كبيرة، أردنا إنجاب الأطفال. لم نكن أثرياء لكننا لم نكن فقراء أيضاً. كنت أكسب ما يكفي لإعانة أسرتي، ما يكفي لنعيش في هدوء. كنت سعيداً. ثم ذات يوم، ذهب كلّ ما أملكه بلا رجعة. سنوات من الحبّ والأمل تلاشت في لحظة.

كنت أمشي برفقة خطيبتي، عندما أخذ عدد من الشباب في معاكستها بتعليقات سوقية. في البداية تجاهلَت الأمر؛ قالت لي إنهم سيذهبون إن ظللت هادئاً. لكن هؤلاء الأشقياء اقتربوا، وازدادوا قباحة. لم أقدر على التحمّل أكثر من ذلك، واجهتهم، وتعاركنا، أنا وحدي في مواجهة أربعة منهم. صرخت خطيبتي، لكن أحداً لم يتدخل. ثم هرعَت إلى البيت لتحضر مساعدة.

ضربوني. لكموني وركلوني حتى فقدت الشعور بالألم. نزلت الضربات على جميع أنحاء جسدي، رأسي ومعدتي وعانتي، وأنا متمدد على الأرض يمتلئ فمي بطين الأرض، وغزا ترابها عيني وخياشيمي، عجزتُ حتى عن رؤية ما يحدث. فكرتُ أن الضرب سينتهي عاجلاً أو أجلاً، عليّ فقط أن أتماسك.

لكن هؤلاء الرعاع لم ينتهوا مني بعد.

جروني عبر الشارع حتى بلغوا مبنى مهجوراً. شلّني الخوف، ما الذي سيفعلونه بي؟ راودني شعور أنهم لن يقتلوني.

وبالفعل لم يقتلوني. كان هذا سيكون أمراً مملاً غير مسلٍّ. أرادوا

أن يتأكدوا أن ألمي سيدوم إلى الأبد. أرادوا أن يدمروا ذكورتي، قدرتي على أن أصير زوجاً، أباً... رجلاً.

أخرج أقواهم منجلاً، ونزع عني آخر ملابسي. استغرق الأمر ثانية واحدة، رأيت النصل يلتمع بينما يقطع قضيبي.

تركوني أنزف على الأرض وهربوا ملوّحين بعضوي مثل غنيمة. وقبل أن يمضي وقت طويل وصل أصدقائي، لكن وصولهم كان متأخراً.

أخذوني للمستشفى، وأجرى لي الجراحون جراحاتهم. أنقذت غرفة الطوارئ حياتي، لكني تمنَّيتُ لو لم تفعل. أفضل لو أني كنت قُتلت على أيدي هؤلاء المتوحشين أو تُركتُ لأموت. من هذه اللحظة، لم يعد لحياتي معنى».

توقّفَ. عجز لساني عن إيجاد كلمات، لكنه لم يلاحظ، تابع:

«تعافيتُ سريعاً وخرجت، لكنّ كلَّ شيء في حياتي لم يعد مثلما كان من قبل. لذا، فعلت الشيء الوحيد الممكن: تركتُ البيت، تركتُ كل شيء خلفي وذهبت. قررت الذهاب إلى أوروبا، لم يكن لديّ الشجاعة لمواجهة عواقب مثل هذا النوع من التشوهات في بلدي. عرفتُ أنني لن أجد من يقبلني بشكلي الجديد. لم أستطع النظر لوجه خطيبتي أو أصدقائي أو حتى أمي».

ثم نظر إليّ: «أهناك أي شيء يمكنك فعله لي يا دكتور؟ أرجوك أخبرني إن كانت هناك طريقة لاستعادة ما خسرت. يقول الناس إن بإمكاني العودة للحياة السعيدة مرة أخرى...».

بحثتُ عن الشجاعة التي تمكّنني من إخباره بالحقيقة وكدتُ ألّا أجدها. لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله له. حتى الأطراف الصناعية لن تفيد إلا في تحسين المظهر. لم يكن هناك أي ما يمكن قوله لإراحته أو لتشجيعه. في هذه اللحظة، شعرت أني بلا فائدة.

مع انتهاء الاستشارة، شكرني على الاستماع لحكايته وذهب، رافقه أحد الأخصائيين لمركز الاستقبال.

جلستُ خلف مكتبي لساعات، مصعوقاً، غير قادرٍ على عمل أيّ شيء.

قضى الشاب النيجيري عدة أيام أخرى في لامبيدوزا. جاء لزيارتي مرة أو مرتين بعدها، وقال إنه ممتنّ لي، رغم أني لم يكن لديّ ما أساعده به. عندما حان موعد انتقال مجموعته إلى جرجنت، رأيتُه في المرفأ. احتضنني وتبادلنا كلمات الوداع، ترك معي ابتسامته الحزينة ومضى.

القُرعة

ذات مساء، عاد أبي من المرفأ، بعد يوم طويل قضاه في إصلاح شبكات الصيد وصيانة القارب (كينيدي). بعد العشاء، جمعَنا، نحن أبناءه السبعة، ونثر على المائدة سبع ورقات مطوية. قال «أنتم سبعة، وأنا لا أستطيع تحمل كلفة تعليمكم جميعاً في المدارس والجامعات». ثم جعل (كاترينا)، أصغرنا، تسحب واحدة من الأوراق.

في لامبيدوزا مدرسة إعدادية، لكنها بلا مدرسة ثانوية liceo. إرسال أبنائك إلى مدرسة ثانوية في صقلية كان رفاهية لا يقدر على تحمّلها الكثيرون. لكن القرعة لم تكن إلا على سبيل المظاهر. اسمي كان في الأوراق كلها. في النهاية أنا الذي كنت على وشك إنهاء المدرسة الإعدادية، ودرجاتي كلها كانت ممتازة. لكن السبب الرئيسي جاء من كوني الولد الوحيد في البيت، وإن حدث أي شيء لأبي، سأكون المسؤول عن أمي وأخواتي، وأخي.

بكيتُ حتى نمتُ في تلك الليلة. كنتُ في الثالثة عشرة، وفكرة الرحيل عن المنزل والحياة بعيداً أفزعتني. في الصباح التالي صرختُ

لأمي بشعوري. «ماما، أنا خائف، لا أريد الذهاب». احتضنَتني، وارتسم على محيّاها التعبير نفسه الذي تعود به من جرجنت بعد كل زيارة لأخي في المصحة العقلية. قلبها كان منكسراً، لم ترغب في فقداني أيضاً.

سمعتُها وأبي يتجادلان، لكنه أقنعها بسرعة: «أتحبّين أن يبقى هنا وينتهي به الحال صياداً مثلي؟»، قال لها، «أهذا ما ترغبين فيه لابنك؟».

كان أبي مصرّاً على كونه لا يرغب أن تصير حياتي مثل تلك التي عاشها، تحت رحمة بحر طيِّب رقيق في لحظة ومتوحّش لا يرحم في أخرى. أراد لي ما هو أكثر، وهو ما كان أمراً معتاداً في تلك الحقبة. كنّا نعيش نقطةً فاصلة في التاريخ الإيطالي: إعادة بناء ما دمّرته الحرب، وازدهار اقتصادي شمل حياة الناس في جميع أنحاء البلاد، عمالاً وفلّاحين وصيادين. ما جعل الكثيرين يطمحون لمستقبلٍ أفضل لأبنائهم. لم يعُد من المستحيل تصوّر الأطفال يدرسون في الجامعات ليصبحوا أطباء ومحامين ومهندسين ومعلِّمين. يعود هذا أيضاً للحكومة التي وفرت شتى أنواع التسهيلات والدعم. شعرنا جميعاً أن الديموقراطية رسّخت أخيراً أساساً صامداً سليماً. اقتنع أبي أن كلَّ العقبات قابلةٌ للتذليل، فقط إن وافقتُ على بذل المجهود.

غادرتُ في الخريف التالي، بحقيبة سفرٍ لا تحوي إلا الملابس القليلة التي امتلكتها. تقرر أن أنتقل لمدينة تراباني، لأنها كان يتوفر

فيها طيران مباشر إلى لامبيدوزا. التحقتُ فيها بالثانوية العلمية liceo scientifico هناك، وهي مدرسة تركّز على العلوم الطبيعية. استأجر لي أبي غرفة في بيت سيِّدة مسنَّة. أيّامي الأولى كانت سيئة، صاحبة البيت كانت باردة وفظّة، لم تهتم بحقيقة كوني تجاوزتُ مرحلة الطفولة لتوّي. لم تحتضنّي أو تبتسم لي، لم يبدر منها حتى كلمة طيبة. كان البيت مظلماً منقبضاً، كان رطباً لدرجة أن الحيطان كانت متقشرة. كنتُ أعود للبيت من المدرسة وألقي بنفسي على السرير وأنتحب. كنتُ حزيناً بائساً. وعندما يحلّ المساء لا أجد ما أفعله، فتغمرني الوحدة أكثر. عجزتُ عن التوقف عن التفكير بأمي وأبي وشقيقاتي جالسين حول المائدة.

الأسوأ من ذلك أني لم أعرف شيئاً عن الطبخ أو كيفية الاعتناء بنفسي. في أسرة قوامها ست نساء، لم يكن هناك أي مجال للمس إناء أو فرن. لشهر كامل لم آكل إلا الخبز واللحم المعلب. مجرد رؤية (سبام)[1] على أرفف المتاجر تسبب لي الغثيان حتى يومنا هذا. شيئاً فشيئاً، تعلَّمتُ أن أضع بعض المكوِّنات معاً لأصنع طبقاً من المعكرونة، أشبع هذا معدتي لكنه لم يشبع حنيني للبيت.

في الواقع، كنت مقتنعاً أن اضطراري للبقاء هنا وحيداً في مدينة غريبة أمرٌ من قبيل الحماقة. أقضي كل يوم وكأنه اليوم نفسه، أخطو ذهاباً وإياباً بين غرفة نومي والفصل الدراسي. وكلما رأيتُ أسرةً

(١) SPAM (Shoulder of Pork and Ham): نوع شهير من لحم الخنزير المعلب، يباع في حوالي مئة دولة حول العالم. [المترجم]

سعيدة يمشي أفرادها في الطرقات صباح يوم أحد، ويضحكون في سعادة. أشعر بغصّةٍ في حلقي. قضيتُ وقتي منغمساً في الدراسة وحالماً باليوم الذي سأعود فيه إلى لامبيدوزا.

قد يبدو هذا غريباً، لكن برغم أن تراباني مدينة ساحلية، إلا أني افتقدت البحر، بحري. لن يفهم إلا أولئك الذين عرفوا لامبيدوزا لماذا لم يكن البحر هو نفسه. افتقدتُ أرض الجزيرة المسطحة وارتباطها الشديد بالأمواج. افتقدتُ قضاء أيام طويلة بالخارج برفقة أصدقائي، نجري في الأنحاء بلا أحذية، نسلّي أنفسنا بألعاب مرتجلة. ربما لم يكن هذا كثيراً، لكنه كان كافياً لجعلي سعيداً.

بعد عامين، وجد لي أبي غرفة في بيت أُسرة. ربّ الأسرة، الملقب بـ(زو-نانا)، كان بائعاً متجوِّلاً. عاملني وزوجته أفضل مما فعلت السيدة المسنّة.

كان في مدخل بيتهم كراج، يحتفظ فيه زو-نانا بحماره وعربته. يأخذ العربة إلى مكان يدعى (سينيا) كل صباح، حيث قطعة أرض مزروعة بشتى أنواع الخضروات. يملأ عربته هناك ثم يقضي بقية يومه يتجول ويبيع في شوارع ترباني. وبما أني كنتُ أستيقظ مبكراً، فكثيراً ما خرجت معه لمساعدته في ملء سلاله قبل المدرسة. لم أمانع فعل هذا النوع من المهام، في الحقيقة كنت ممتناً لوجود شيء أفعله.

من حين لآخر، كان زو-نانا يأخذني لمرفأ صيادي التونة في بوناجيا، لمشاهدة الصيادين يقتلون غنيمتهم. تُنصب الفخاخ

لأسماك التونة الضخمة، المتنقلة في بحث غريزي أبدي عن مياه أكثر دفئاً، تقودها شبكة من الأنابيب الحاذقة مباشرة لغرفة الإعدام، حيث يقف رجالٌ اقوياء حاملين رماحاً طويلة، يرفعون من عزيمة بعضهم بترداد «أغاني القتل» العتيقة التي تعرف باسم (تشالومي *cialome*)، يقودهم الصياد الأكثر خبرة أو الريس *rais*. وكلما ظهرت تونة على السطح، يصيدونها، وبمجهود هائل يخرجونها من المياه.

تركت المعركة الملحمية بين الرجال والوحوش انطباعاً قوياً بداخلي. أتذكر جيداً المياه المبقعة بأحمر الدماء بينما يتعاون الرجال على استخراج السمكة بجهد جهيد. كان مشهداً مهيباً ومنعشاً.

كانت تلك هي الفترة التي تعرفت فيها على صديقي الوحيد في تراباني، مايكل آنجلو. بعد المدرسة، كنا نذهب إلى غابة إريتشي لنجمع الجوز، ثم نقتسم غنيمتنا. كنت أعطي نصيبي لزو-نانا، الذي يبيعه على عربته. كان سعرها مرتفعاً لأن جمعها كان عملاً شاقاً. هكذا كنت أجد طريقة لقضاء الوقت ومساعدة أسرتي الجديدة المستضيفة.

تعلّمتُ حرفة اللحام أيضاً اثناء إقامتي في تراباني عند حداد يدعى (تيتّا)، يعيش بالقرب منا. كنت أقضي فترة العصر عادة برفقته. لكني كنت صغيراً ومتهوراً، وعادة ما كنت أرفض حماية وجهي وارتداء القناع. فكنت أعود للبيت كل مساء بعينين حمراوين متورمتين ولا أستطيع النوم. قضيتُ ليالي طويلة بشرائح بطاطس فوق جفنيّ لتخفيف الألم.

كنت حريصاً على التعلّم، يدفعني فضول دائم لمعرفة كل شيء. والأهم من ذلك، لم أكن أرغب في قضاء وقت وحيد برفقة نفسي، فأتذكر أين أنا.

خيار لا رجعة فيه

لطالما استمتعت بالصيد في طفولتي. اعتدت وأصدقائي على مطاردة القبّرات. وتفنّنا في صنع مقاليع من جذوع الأشجار. اختيار الجذع المناسب كان أمراً هاماً، يجب أن يكون خشبه قوياً ومرناً لا ينكسر بسهولة. ينقل الفتية الأكبر أسرار صنع المقاليع للأصغر، ولا تزال السُنّة القديمة حيّة إلى الآن. كان علينا تسلية أنفسنا بأنفسنا، بألعاب من اختراعنا، وتلك كانت واحدة من ألعابنا المفضلة.

صناعة السمك المجفف، ذلك المعروف باسم (بيشيزيكي piscisicchi)، كانت واحدة من أكبر الصناعات في لامبيدوزا. يُغمر السمك في البداية في أوعية ضخمة ممتلئة حتى الحافة بنوع معين من المحاليل الملحية. ثم تُرصّ الأسماك على إطارات خشبية ضخمة، وتُترك لتجفّ في حقل واسع يحتله الآن المطار. أطلقنا على تلك الأرض لقب (مهبط الطائرات)، على الرغم من أنها كانت مخصصة للطائرات الحربية فقط في ذاك الوقت. في كل صباح، كان العمال

يفردون الآلاف من الإطارات الخشبية حتى تغطي الحقل الترابي بأكمله. كان مشهداً عظيماً، أشبه بنهرٍ عملاق فضيّ يلمع تحت أشعة الشمس. وفي المساء، يرفع العمال الإطارات مرة أخرى ليحموها من ندى الليل.

انتاج دفعة من البيشيزيكي كان يستغرق من خمسة إلى ستة شهور، تباع بعدها في صقلية. قد يبدو انتاجه أمراً سهلاً مباشراً، لكنه كان مهمّة شاقة. رائحة الأسماك تجذب النوارس التي تحاول سرقة الأسماك طوال الوقت، فيقضي العمال أيامهم في محاولات لا تنقطع لإبعاد الطيور.

واجه العمال أيضاً تهديداً من نوع آخر: الأطفال، نحن. خاصة عندما نخرج باحثين عن أعشاش القُبّرات. كانت طيوراً مراوغةً صعبة المنال، لكننا توصلنا لطريقة لتحديد مواقعها: كنا ندرس السماء حتى نرى أنثى تدور في الهواء فوق عشها لحماية صغارها. بهذه الطريقة كنا نحدّد بالضبط أين علينا البحث. وغالباً ما كانت الأعشاش تقع في حقول البيشيزيكي. وهكذا، عندما يتشتت تركيز الحراس، كنا نتسلّل إلى الحقل ونعيث فيه فساداً، قالبين الإطارات بحثاً عن غنيمتنا. بالتفكير في الأمر الآن، اخشى أن ما سببناه من إزعاج كان أسوأ بكثير مما سببّته النوارس.

بعد عودتي للجزيرة طبيباً، تطورتُ من المقلاع إلى البندقية. اعتدتُ قنص الطيور المهاجرة التي تتوقف للراحة من رحلة سماوية طويلة. لكن ذات يوم، عندما كنت وأصدقائي في رحلة صيد،

قرَّرتُ التوقف فجأة. لما قد يبدو للبعض أسباباً واهية، فقدتُ رغبتي في الصيد. بينما كنت أنظر لجموع الطيور المرفرفة في السماء، في تشكيلة بدت لعينيَّ أشبه بموجة بحر، فكّرتُ في الطريق الطويل الذي قطعَتهُ، والطريق الطويل الذي بقي أمامها. شعرتُ في هذه اللحظة وكأني أرى وجوه المهاجرين، أولئك الذين قرروا التحلّي بالشّجاعة اللازمة لمواجهة كلّ أنواع المخاطر الواقفة بينهم وبين الوصول للأمان، أولئك الذين أخذت منهم الرِّحلة زوجاً أو ابناً أو شقيقاً.

منذ تلك اللحظة، لم أطلق رصاصةً على طائر قطّ. بدلاً من ذلك، كلما طُلب مني إعطاء رخصة صيد، والتي كان إصدارها واحدةً من مهامي في العيادة، ينتهي بي الأمر محاولاً إقناع طالبها بالعدول عن رغبته.

لا يوجد في لامبيدوزا تقريباً من لا يذكر غرق سفينة اللاجئين في الثالث من أكتوبر ٢٠١٣، التي غرق فيها ٣٦٨ ضحية. رُصَّت يومها التوابيت في حظائر الطائرات بالمطار. ماتوا على بعد أمتار من الشاطئ، من الأمان، من الفرصة لبدء حياة جديدة. لكن قليلاً منا يذكر حادثة الغرق التي وقعت بعدها بأيام، في الحادي عشر من أكتوبر، رغم أن عدد الضحايا كان مشابهاً. سقطَت هذه الكارثة من الذاكرة لأنها حدثت أبعد من سابقتها، بالقرب من سواحل مالطا.

في هذا اليوم، أنزلَت طائرة مروحية مالطية تسعَةَ ناجين في

لاميدوزا. كانت العيادة كمستشفى ميداني ساعة حرب. تمدَّد بعض المرضى في أسرَّة، آخرون جلسوا في كراسٍ متحركة، ملتحفين بالبطانيات متعلقين بحُقن الأوردة. أحدهم كان الناجي الوحيد من أسرته البالغ تعدادها اثنين وعشرين فرداً. كان يصرخ بأنه يريد قتل نفسه. استطعنا تهدئته بصعوبة.

حاولت الحديث مع شاب سوري آخر، يتدلى من وريده محقنٌ، محيّاه كان بلا تعبير، لم يستجب لمحاولتي. بجواره جلسَت امرأة تربّت على رضيع عمره تسعة شهور يرقد في حضنها، كانت مثله تحدِّق في الفراغ بعينين خاويتين. كانت تربّت على رضيعها بطريقة غريبة، تحتضنه حيناً وتبعده عنها حيناً، وكأنها تحاول موازنة شيء ما بينهما.

بعد ساعة أو يزيد، قرَّرَ الرجل أخيراً التحدث معي. قال لي إن المرأة هي زوجته. عندما تحطم القارب، وجدا نفسيهما في المياه مثل الثمانمئة راكب الآخرين. كان سبّاحاً ماهراً، وضع ابنه ذا التسعة شهور في قميصه ملتصقاً بصدره، وأمسك بيد ابنه ذي الأعوام الثلاثة، وباليد الأخرى زوجته. وشرعوا في العوم متجاورين، محاولين الخوض في المياه والبقاء على سطحها. انتظروا قدوم مساعدةٍ لم تأتِ. غمرهم التعب.

في النهاية، أدرك الرجل أن أنفاسه تكاد تنقطع، والأمواج تعلو والتيار يشتدّ. اضطر إلى اتخاذ قرار لا رجعة فيه. كان عليه حصر خياراته واختيار أحدهما بينما هو معلّق بين الموت والحياة.

لو استمر في محاولة خوض المياه هكذا سيغرقون أربعتهم لا محالة. فتح يده اليمنى، وأطلق سراح ابنه. وشاهده يختفي أمام عينيه تحت الأمواج.

لم يستطع الرجل التوقف عن النحيب بينما يحكي، وبالمثل لم أقدر أنا. لم أجد في داخلي ما يعينني على التماسك أمامه، ما أشعرني بالذنب، فلا يجب أن يسمح الطبيب لمرضاه برؤية تأثُّره. لكن هذه أشياء لا يمكن التحكم بها. كيف أبقى متماسكاً أمام كل هذا الحزن العاتي؟ ضاعف عذاب الرجل أنه بعد دقائق من فعلته وصلت المروحيات. «لو تمسَّكتُ به للحظات أخرى، كان ابني ليكون هنا، معنا. لن أسامح نفسي أبداً».

سيدة أخرى حملت بين ذراعيها رضيعة في الثانية من عمرها، يخرج منها صوت يشبه الغرغرة. أوضحت الأم أن ابنتها ظمأى، لكنها تتقيأ كلما تجرعت ماءً. واجهنا صعوبة في وضع نقاط في حلقها، لكننا نجحنا في النهاية. قالت لي السيدة أن زوجها بقي في ليبيا. لم يكن بوسعهم تحمل تكاليف إرسال ثلاثتهم في الوقت ذاته، لذا قرّرا ذهاب الأم والرضيعة وبقاء الأب. لم يسمعا منه خبراً منذ ذلك الوقت.

وكان بين الناجين طالب جامعي، أخبرنا أن امرأة دخلت مرحلة المخاض أثناء الرحلة. سألوا إن كان هناك طبيب معهم، وكان هناك بالصدفة سبعة أطباء. ساعدوها جميعاً في الولادة. بعدها مباشرة انقلب القارب. قال الشاب إن حادثة الولادة ربما كانت السبب في

انقلاب القارب، لأن كثيراً من الناس تدافعوا لرؤية الطفل المولود، ما أفقد المركب توازنه.

في صباح اليوم التالي، جاء قارب الحارس المالي لميناء لامبيدوزا. وبدلاً من إحضار ناجين هذه المرة أحضر واحداً وعشرين جثة، وضعوهم كالعادة في حقائب خضر على شاطئ فافالورو بيير. قبل اتخاذ أي قرار، قضيتُ وقتاً في النظر إلى الضحايا، مستجمعاً شجاعتي للبدء. كان بينهم أربعة أطفال، بدوا كأنهم نائمين. فحص جثث المتوفين عموماً أمر صعب، لكن فحص جثث الموتى غرقاً أمر شنيع. عدت للمنزل يومها في أسوأ حال مرَّ عليّ في حياتي.

استمرت الجثث الناتجة عن حادثة الغرق في القدوم لمدة طويلة. لم تكن مجرد أرقام، وإنما مثّلت تلك الأجساد حكايات لأسرٍ فقدت أبناءها، رغم أن هؤلاء الأبناء تركوا البيت في المقام الأول للهروب من الحرب والمصير الوخيم. وكأن صياداً خبيثاً يطلق رصاصه في الظلام عشوائياً على جسد عملاق قوامه من جموع اللاجئين المدحورين.

استقبلتُ في الأسبوع التالي مكالمة تليفونية من رجل سوري يتحدث الإيطالية بطلاقة. استطاع الوصول إليّ أخيراً بعدما جرب الاتصال بكل من حمل اسم (بارتولو) في لامبيدوزا. سألني إن كنتُ قد عثرتُ على أخيه بين ضحايا الحادثة أو الناجين منها. كان أخوه على المركب برفقة زوجته وأبنائهما الأربعة. كان طبيباً يدير عيادة برفقة ستة من زملائه. هربوا جميعاً من سوريا إلى ليبيا، ثم ركبوا

سبعتهم القارب نفسه. فكرتُ: «سبعة أطباء! لا بدّ أنهم السبعة الذين أخبرني الطالب بشأنهم».

بعد عدة أيام، أرسل لي الرجل صوراً فوتوغرافية لشقيقه وزوجته وأبنائهم. تعرفتُ على ابنة أخيه، كانت واحدة من الأطفال الأربعة في حقائب الجثث الخضر. اتصلتُ بمدينة (بورتو ايمبيدوكلي) في مالطة لأرى إن كان هناك آخرون ناجون. لكن الإجابة كانت نفسها دائماً.

الفتاة في الصف الأول



بعد قضائي ثلاثة أعوام في المدرسة الثانوية، غادرتُ تراباني. كانت أختي (إنزا) قد تزوجَت من شرطي في حرس حدود لامبيدوزا، ثم انتقل زوجها لمدينة (سيراقوسة). انتقلتُ لمدرسة هناك وذهبتُ للعيش معها. أخيراً لم أعد وحيداً.

كلما عدتُ من المدرسة، تكون إنزا قد جهّزت طعام الغداء. أحببت جلوسي على مائدة عائلتها. لكن حنيني لبحر لامبيدوزا لم ينطفئ في سيراقوسة. بعد الغداء كنت أخرج لأتمشى على رصيف الميناء. أقضي ساعات بين المرافئ، مراقباً النوارس والقوارب، مفكراً في لامبيدوزا. صار الأمر أشبه بطقس ثابت. حتى عند هطول المطر وحلول الصقيع، حتى لو كنت أعاني من ارتفاع درجة الحرارة. ببساطة، كنت أشعر أن علي الذهاب إلى هناك.

بين حين وآخر كانت أختي تقول لي «ستموت يا بيترو بهذه الطريقة، ماذا سأقول لماما حينها؟». لكنها تفهّمت حاجتي القسرية للتواجد بالقرب من المياه. هي أيضاً افتقدت لامبيدوزا في أعماقها.

تعرف كم أحتاج للهواء المالح في رئتيّ، جرى هذا الشوق في عروقنا مجرى الدم.

أحببتُ الذهاب إلى الميناء، حتى لو كان الجو عاصفاً. صوت عراك الموج الأبدي مع الحواجز كان ينعشني. وبعدما أشبع حاجتي من نسيم البحر، أعود للبيت، وأدرس طوال الليل، وأعدُّ الأيام الباقية على إجازة الصيف.

وبما أني كنت طالباً متميّزاً، فقد سمح لي المعلمون بالعودة للبيت قبل شهر من نهاية كل عام دراسي، وبالعودة متأخراً بضعة أسابيع عن بداية العام التالي. في الرابعة عشرة، مثل كل أصدقائي، خضتُ اختبارات السباحة والتجديف الأساسية التي تؤهلني للحصول على رخصة بحّار، ما يسمح لي بالخروج في قوارب الصيد. نجحتُ من أول محاولة مثل كل أبناء لاميدوزا. منذ تلك اللحظة، قضيتُ إجازات الصيف في البحر مع أبي. أحياناً كنت أنتقل من العبّارة التي تحضرني إلى لاميدوزا مباشرة لقارب أبي. كنا نصطاد لأربعة أشهر متواصلة، وأحياناً في الليالي. عملت مساعد مهندس، مسؤولاً عن الاعتناء بالزوارق. تلقيتُ الراتب نفسه الذي يتلقاه البالغون. كانت العوائد تقسم لأجزاء متساوية، وطبيعة عمل كل فرد هي التي تحدد كم من الأجزاء يتلقاها. كنتُ أعطي كل ما أكسبه بطبيعة الحال لأبي. كلفة دراستي كانت عالية، وكان عليّ أن أساعده بشيء ما.

عانيتُ في أعوامي الأولى على القارب من دوّار بحرٍ شنيع.

كنت دائم البحث عن ركنٍ هادئ في السطح لا يراني البقية أختفي فيه. خجلتُ من نفسي، ولم أرغب أن يحسبني أبي ضعيفاً ذا قلب خفيف، لا يصلح لهذه الوظيفة. لكني اعترفتُ بالحقيقة ذات يوم لأمي. وضعَت أمي ثلاثين مسماراً صدئاً في نبيذ أحمر وسخّنته حتى الغليان، وهي وصفةٌ يشاع عنها أنها تقوي معدة المرء، لم تفعل هذا بالضبط معي، وإنما أسكرتني. ثم أخذتني لسيدة عجوز على جزيرتنا، ساحرة من نوع ما. ردّدت الصلوات فوقي، مسحتني بنظراتها، من الأعلى للأسفل. لاحقاً، بدأت أشعر بالتحسن. لم أشعر بعدها بحرج من مرض قطّ.

في سيراقوسة، لأول مرة أجد نفسي في فصل دراسي مشترك. وبما أني كنت قصير القامة إلى حدّ ما، فقد وُضعت في الصف الأول، بجوار حسناء تدعى (ريتا). فوراً دعوتها للخروج في موعد. رفضَت عرضي، ورأت في إلحاحي إزعاجاً. لكنها في النهاية استسلمَت. قالت إنها وافقت فقط لأني جعلتُها تضحك.

ريتا من مدينة جبلية تدعى (فيرلا)، أو (فيرا) عندما تنطقها باللهجة المحلية. في مساء يوم أحد شتوي بارد، اقترضتُ دراجة نارية وانطلقتُ بها في سلسلة لا نهائية من الطرقات الملتوية غير الممهدة، حتى وصلت في النهاية إلى فيرلا. أخبرني أصدقائي بكيفية بلوغ منزل ريتا. لمحتُها عبر النافذة، كانت تمارس التطريز، وتبدو في أجمل حالاتها. لكنها ما أن رأتني، اختفت. أخذتُ نفساً عميقاً وطرقت على الباب، فتحَت أمها. لم أعلم ما ينبغي قوله، لكني كنتُ هناك بالفعل ولا مجال للتراجع، ولا يمكن بالطبع تفويت

الفرصة. قدَّمتُ نفسي، وشرحتُ أني أحب ابنتها، وطلبتُ إذنها للتقدم لخطبتها. دعَتني أم ريتا للداخل، حيث قابلتُ كل خالات ريتا. رمتني الخالات بنظرات مستريبة، وانتحين بالأم جانباً وقلن لها: «أهذا هو الفتى اللامبيدوزي؟ احذري منه، أبناء هذه المنطقة متوحشون».

بالنسبة لأسرة ريتا، لا أختلف كثيراً عن القادم من كوكب آخر. لامبيدوزا ليست إيطاليا، وبالتأكيد ليست صقلية، في الواقع كانت إفريقية. لكن قلقهم مني لم يستمر طويلاً. صرن يعاملنني كابن لهنَّ بعد فترة قصيرة. صارت ريتا شريكة حياتي، أم أبنائي الثلاثة: (غراتسيا) و(روزانا) و(جياكومو). صارت المرأة التي تشاركني السعادة عندما أعود للمنزل مبتهجاً بمساعدتي الناجحة لسيدة تلد أو علاجي لطفل، المرأة التي تخفِّف آلامي كلما اضطررت لمواجهة وفاة أناس أبرياء، الأمر الذي يحدث كثيراً هذه الأيام.

بعدما أنهينا المدرسة، انتقلنا أنا وريتا إلى مدينة (قطانية) لدراسة الطب. أردنا النجاح بشدّة، خاصة وأن عائلتينا كانتا تدفعان مصاريف دراستنا. شققنا طريقنا معاً مستأجرين شقة صغيرة من الجامعة. تجاوزنا كل اختباراتنا، وتخرجنا في اليوم ذاته. لن أنسى أبداً النظرة في عيون أبي وأمي عندما نودي على اسمي. صار ابنهم طبيباً، يمكنهما الآن رفع رأسيهما عالياً. بدخلهما البسيط العائد من الصيد صباحاً ومساءً، ربّوا سبعة أطفال، وأوصلوا أحدهم إلى الجامعة. وحققوا رهانهم الوحيد، الفوز.

استثمارات خطرة

عندما يصل اللاجئون إلى لامبيدوزا، أول من يقابلونهم عادةً هم فريق الإنقاذ والطاقم الطبي. هذا هو السبب الذي يجعلنا أيضاً أوَّل من يلجأ له الصحفيون الباحثون عن القصص والمآسي. ونظراً للهفتي الدائمة ورغبتي المحمومة بنشر الوعي بخصوص هذه المسألة، فقد صرتُ مع الوقت نوعاً من المتحدث الرسمي للإعلام، كثيراً ما خرجتُ في حوارات مع الجرائد والمجلات والراديو والتليفزيون، في بلاد مختلفة بقدر ما أستطيع.

أثناء مقابلة مع جريدة إيطالية، كنت أتحدث مع صحفية عن الأطفال والمراهقين الذين يصلون الجزيرة دون آبائهم، بعد هروبهم من بلادهم وحدهم. كلّما قابلت يافعاً من هؤلاء على المرفأ، أفكّر في أسرهم، الذين خاطروا بكل ما لديهم ليستثمروه في مستقبل ابنهم. أخبرتني الصحفية أنها قضت بعض الوقت في قرية بعيدة على الجانب الآخر من الشاطئ، قبل أن تنفجر المأساة بهذا الشكل في البحر الأبيض المتوسط. رَوَت كيف تعيش العائلات في أكواخ،

يقبعون منتظرين لأيام وأسابيع وربما شهور أية أخبار عن أبنائهم البعيدين. الكثير منهم لا يملكون ما يتذكرونهم به إلا بعض صورٍ فوتوغرافية معلّقة بحرص على الجدران الطينية. صور وجوه مبتسمة لشبابٍ صغار ربما لم يعبروا البحر إلا ليرقدوا في توابيت على الجانب الآخر منه. عليها تذرف زوجات يافعات تُركن وحدهن مع أطفالهن حديثي الولادة الدموع، وترثي أمهات ثكالى شاهدن حلم أوروبا يسرق أبناءهن الصغار.

قرى أشباح، لم يعد فيها إلا كبار السن والنساء وصغار الأطفال، وكأنها قرى ما بعد حرب. لكن المجرم هذه المرة ليس حرباً، وإنما فقر مدقع يترك الأب غير قادرٍ على إطعام أفواه عائلته. عندما أسمع هؤلاء الذين يُنظِّرون على شاشات التليفزيون من أبراجهم العالية، عن الفرق بين المهاجرين اقتصادياً واللاجئين، يشتعل غضبي، أشعر وكأن كل ما فعلته في حياتي ضاع في الهواء.

في هذه القرى، هناك أناس بوسعهم إخبارك بمنتهى الفخر عن أبنائهم الذين استطاعوا بعد رحيلهم بناء مستقبل مشرق لأنفسهم، منهم من عاد لرد «عائد الاستثمار» الذي دفعته أسرهم، مشاركين ما جنوه من رهانهم الرابح.

نرى كثيراً من أولئك الشباب في لامبيدوزا، أفحصهم في المرفأ وأزورهم في مركز الاستقبال وأتعثّر بهم أينما حللت. عندما يغادرون المركز للتجوال في الأنحاء، يكونون دوماً في غاية المراعاة والحرص على ألّا يسببوا أي نوع من الإزعاج. خاصة على

الشاطئ، حيث يحافظون على مسافة بينهم وبين السيّاح لخوفهم من إزعاجهم.

ذات يومٍ في يونيو، رأيتُ مجموعةً منهم على شاطئ جوتيجيا، شاطئ لاميدوزي عتيق خارج المدينة مباشرة تفضّله العائلات والأطفال. تجمع اللاجئون الصغار على صخرة تقع بعيداً عن السياح المحتفلين بالعطلة. دُهشت من عدم كرههم للبحر رغم ما فعله بهم، رغم بقائهم تحت رحمته لأيام وليالٍ مروِّعة طويلة، رغم ابتلاعه لأصدقائهم، وانتزاعهم من أحضان عائلاتهم وبلادهم. ثم تذكرتُ أن البحر هو نفسه من أعطاهم الأمل، من أنقذهم من الموت في المجاعات أو الحروب.

بعيداً عنهم قليلاً وقف فتىً نحيل، بدا أكبر من البقية. وقف يشاهد الأمهات يلاعبن أطفالهن على الشاطئ. كان يبكي. ذهبتُ إليه وسألته إن كان بخير. قال إنه في التاسعة عشرة من عمره، من غانا. «أفتقد أُمي»، قالها بين دموعه.

«كنت سعيداً بخروجي من غانا. وضعتُ مع أصدقائي خططاً للرحلة. أخبرنا الجميع كيف أن أوروبا جميلة، وكيف سنجني فيها كثيراً من المال، ثم سنعود ذات يوم لنقدم لأسرنا حيوات أفضل. لكن ما مررنا به كان جحيماً. كانت الرحلة مأساة، ولم أكن أعرف ماذا أفعل أو أين أذهب. ماذا سيحدث عندما يأخذوننا ويرسلوننا لأماكن أخرى؟ أين سينتهي بنا الحال؟ أنا خائفٌ للغاية». كان صوته تعيساً.

«أنت الطبيب الذي قابلناه على المرفأ، ألست كذلك؟».

«نعم»، قلتها رغم أني لا أذكر أني فحصته. أقابل كثيراً من الناس، لا يمكنني تذكّرهم جميعاً.

«إذن لا بدّ أنك شخصٌ مهم؟».

«لماذا تسأل؟».

«لأنك إن كنت شخصاً مهمّاً، ربما بوسعك مساعدتي. أريد العودة لأمّي وأسرتي، أرجوك، هل تستطيع مساعدتي؟».

كان يتحدث بين دموعه. لم أعرف ماذا أقول له. لم يسألني أحد المساعدة في العودة إلى بلاده من قبل. أخبرتُه أني لا أملك سلطة تعيده إلى غانا، لست إلا طبيباً، لا شخصاً مهمّاً. سألتُه عن اسمه، ووعدتُه بالتحدث عنه لشخصٍ يملك فعلاً سلطة في ترتيب هذه الأمور. تفهَّم ما قلتُه، لكن هذا لم يخفّف من حزنه. كان يتمنى لو استطعت مساعدته. شعرتُ بالعجز أمام هذه الأمنية. حاولتُ تهدئته وأخبرته أن كل شيء سيصير أفضل قريباً، لكنه لم يصدقني. كان لا يزال يبكي عندما تركتُه.

يسمح بعض اللاجئين الصغار لأنفسهم بإظهار بعض الضعف، بينما يرفض آخرون التسليم، حتى في وجه أسوأ المصاعب.

وصل المرفأ ذات يوم قاربٌ آليٌّ مكتظٌّ بالناس. بعد ترجُّل ركّابه، اعتليتُ القاربَ مع بعض الأخصائيين، إذ كان على سطحه فتى فقَدَ القدرة على استخدام ساقيه. تعجبنا ما الذي سبَّب له مثل هذه الإعاقة؟ وكيف استطاع تجاوز كل هذا بإعاقته؟

حملناه خارج القارب. وكنا نجهّز له كرسيّاً مدولباً عندما قاطعنا صوتُ صياح: «توقفوا، توقفوا». الصوت كان قادماً من مراهق انفصل عن بقيّة اللاجئين. كان يشير إلينا بكلتا يديه ويصيح علينا بالإنجليزية: «أتركوه لحاله».

جاء ورفع رفيقه على ظهره بحركة سلِسة، وعاد لمكانه بين الآخرين. نظرتُ بذهول للأخصائيّين، وطلبتُ من المترجم أن يتحدّث معه. وتلك كانت قصتهم.

كانا شقيقين، معاً خرجا من الصومال. أُصيب محمد، الأخ الأكبر، في تبادل إطلاق نار في بلده، تركَته الإصابة مشلولاً. رغم ذلك قرر أن يحاول الخروج إلى إيطاليا برفقة حسن، أخيه الأصغر.

حمله حسن طوال الطريق. معاً عبرا الصحراء، وصلا إلى ليبيا، وأخيراً ركبا قارباً. سخر منهم المهربون طوال الوقت، وكادوا أن يقتلوا حسن لرفضه القاطع التخلي عن شقيقه المعاق. لكن حسن لم يترك جانب محمد ولو لثانية. والآن، بعدما صارا أخيراً في أمان، لا ينوي التخلي عنه أبداً. كان حسن متعباً، لكنه لم يسمح للإرهاق بالظهور على وجهه. بدلاً من ذلك كان يطمئن محمداً الذي أراح رأسه على كتف أخيه.

رأيتهما مرة أخرى بعد عدة أيام، ينتظران القارب الذي سيأخذهما من لامبيدوزا لوجهتهما القادمة. محمد كان لا يزال على ظهر حسن. عندما رآني حسن لوّح لي، وكأنها طريقته في قول: «أترى يا دكتور؟ بوسعنا الاعتناء بأنفسنا، لا نحتاج لأحد».

توقفتُ لمتابعتهم. كان حسن على حقّ، كان وأخوه كائناً واحداً، بجسد واحد ورأسين. تذكرت كلمات مارتن لوثر كينج التي أثبَت هذان الشقيقان خطأها «تعلمنا كيف نطير في السماء كما الطيور، تعلمنا كيف نعوم في البحار كما الأسماك، لكننا لم نتعلم حتى الآن كيف نمشي على الأرض كما الإخوة والأخوات». جسَّد محمد وحسن كل معاني الحب والإخلاص والإيثار التي يحلم المرء بوجودها بين الأشقاء.

إلى فييرا

تزوجتُ من ريتّا بعد تخرُّجنا بوقتٍ قصير. وُلدت طفلتنا الأولى (غراتسيا) في مايو ١٩٨٤. حينها كنت وريتا متدربَين في قطانية، تدرس هي لتصبح طبيبة متخصصة في أمراض الدم وأنا طب النساء والولادة. أرغمَنا عملُنا على بذل تضحيات. تركنا ابنتنا في فيرلا، لدى أسرة ريتا، ولم يكن بوسعنا رؤيتها إلا في عطلات نهاية الأسبوع.

صارت عائلة ريتا عائلتي. امتلك حماي، تشيتشيو، رقعة واسعة من الأرض على بعد مسافة من المدينة، زرع فيها القمح وربّى الأبقار التي صنع من لبنها جبن الريكوتا وأنواعاً أخرى من الجبن، وأخذ عجولها كل عام ليبيعها في السوق. هكذا كان يجني قوت أسرته وأبنائه.

قبل أن أعرف ريتا، لم أجرِّب حياة المزرعة قطّ في حياتي. بسرعة عرفتُ أن حياة المزارعين لا تقل صعوبة عن حياة الصيادين؛ يجب حلب البقر يومياً، بالتالي لا توجد إجازات نهاية الأسبوع. في كل

صباح باكر لم يغرب قمره بعد، يضع تشيتشيو السرج على ظهر بغله، بيرتولدو، ويملأ سلاله بالطعام الذي أعدّته حماتي، روزا، ويخرج للعمل في الحقول. يستغرق الطريق في الطقس الجيد ساعتين، لكن إن كانت السماء تمطر، ستُمسي الرحلة محنة. فالطرقات غير ممهدة، والأرض على بعد ثلاثة وديان. لكن تشيتشيو كان يفعلها كل يوم، حتى لو كان مريضاً. كانت لديه مظلة ضخمة، لكنها لم تكن كافية لحمايته التامة من المطر. كان عليه أيضاً ان يعبر نهرين يفيضان عادة في الشتاء. أحياناً كان يصيبه التعب لدرجة استسلامه للنوم على ظهر بغله، لكن بيرتولدو يعرف الطريق، ويحمل راكبه بأمان إلى وجهته.

عندما يضرب الشتاء صقيعه القارس، يعود تشيتشيو ليلاً بيدين متشققتين وأصابع تنزف مفاصلها. تقدم له روزا ملعقة من زيت الزيتون، يسخّنها، ثم يسكبها برفق على جروحه المفتوحة. الفقاقيع الناتجة عن تلك الحروق البسيطة كانت تسمح للجروح بالالتئام. كانت عملية صعبة، يظهر ألمها على محيا تشيتشيو كلما فعلها.

بعد العشاء، ينهار تشيتشيو المتعب على سريره. لا وقت ليقضيه في ممارسة أشياء أخرى، لا توجد عطلات أو إجازات، لا يقوم في حياته إلا بعمله.

خلال شهور الصيف، كنت أعمل في الحقل مع حماي إن لم أكن قد عدتُ إلى لاميدوزا. هكذا تعلّمتُ حصاد الحبوب. كنّا نجمع

القمح في حزم نربطها على ظهور البغال لنقلها إلى أرضية الدراس. ثم نأخذ الحبوب إلى المدينة لنبيع جزءاً منها، ونخزّن ما تبقى في المخزن. مرة كل شهر، نملأ عدة حقائب بالحبوب ونعطيها للطحان، الذي يعيدها لنا مرة أخرى على هيئة دقيق ونخالة. يقدم تشيتشيو النخالة للدجاج وبقية الحيوانات، وتستخدم روزا الدقيق مرّةً كل أسبوع لصنع الخبز في الفرن. ساعدتُها في الخَبز، وعلمتني فنون العجين. وعندما كنا نخرج الأرغفة من الفرن، كنت أقطعها لشرائح أسكب عليها الزيت وأرشّ فوقها الملح. لم أذق في حياتي خبزاً شهياً كهذا في أي مكان آخر، فقد حملَت رائحته ثراء الأرض. تعلمتُ هناك أيضاً حلبَ الأبقار، واكتشفتُ كيفية صنع جبن الريكوتا عبر عملية طويلة ومعقدة. سحرَتني حياة المزرعة، ورسَّخَني تشيتشيو في أرضها، علّمني كم تحتاج الحياة إلى تعب لتستمر.

عندما يندر العشب في تلك الناحية من الجبال، تُنقل الحيوانات إلى مكان آخر، إلى وادٍ بعيد في قلب اللامكان. تسمى هذه العملية بـ (الانتجاع *transumanza*)، عملية النقل السنوي للماشية بحثاً عن مراعٍ طازجة، يحدث هذا في الوقت نفسه كل عام. يملأ تشيتشيو سلاله بطعام يكفيه لشهر، يأخذ بيرتولدو وينطلقان بصحبة القطيع. بلوغ ذلك المكان كان يستغرق يوماً ونصف اليوم. الوادي مكان خالٍ تماماً، لا يوجد فيه حتى كوخ. ينام تشيتشيو هناك تحت الأشجار، محتضناً الأبقار للحصول على الدفء. طوال الوقت الذي يقضيه هناك لا يقابل ولا يرى أحداً. تحرق الشمس بشرته نهاراً، وتبتل ملابسه بالندى البارد ليلاً.

عندما يصادف وجودي في فيرلا وقت الانتجاع، كنت آخذ بعضاً من الخبز المنزلي والزبدة الطازجة من حماتي، وأخرج لزيارته. قضيتُ ساعات طوال بصحبته نتبادل الحديث هناك. كان رجلاً حكيماً، قضى حياته كلها يرعى أسرته، التي صرتُ جزءاً منها. لم يعاملني قطّ على أني زوج ابنته، كنت ابنه الثالث بعد ريتا وأخيها مايكل. ولهذا كنت ممتنّاً.

العودة إلى الجزيرة

في قطانية، كنا جزءاً من مجموعة من الأطباء المتدربين الممتازين. مسيرة زملائي الوظيفية كانت عظيمة، وصار كل منهم علماً في تخصّصه. ربما لو تابعت دراستي لكنت خرجت مثلهم إلى العالم الواسع. لكني كنت بحاجة للكسب لإعانة أسرتي، والوقت يمضي بسرعة. لذا، عدنا إلى سيراقوسة، حيث التحقتُ بوظيفة في عيادة خاصة. وهناك اتخذنا قراراً صعباً، خاصة على ريتا: العودة إلى لامبيدوزا، حيث يستطيع كلانا بسهولة تحقيق ما يكفي للحياة.

بالنسبة إليّ، قرار العودة إلى البيت بدا طبيعياً، لي جذور هناك تناديني للعودة. أحببتُ فكرة كوني طبيب لامبيدوزي محلّي حقيقي. وكانت الجزيرة بحاجة للكثير من العمل، الكثير من البناء. أما بالنسبة لريتا فالأمر كان مختلفاً. مجرد تخيّلها للحياة هناك كان أمراً صعباً. إن لم تكن ولدتَ في لامبيدوزا، يصير هضم أبعاد الجزيرة وإيقاع الزمن ومنطق الحياة أمراً مرهقاً. المكان جميل في الصيف، لكن في الشتاء يمكن أن تشعر وكأنك في قفص تعدّ اللحظات

للهروب منه. إن كنت محبّاً للسينما والمسرح والموسيقى، ستخنقك محدودية الحياة الثقافية هناك. لكن كانت هناك أيضاً مشكلة كبيرة أخرى: عرفَت ريتا جيداً أنه سيكون على أبنائها ترك البيت لاستكمال دراستهم، مثلما فعلتُ أنا. سيكون عليهم الطيران من العشّ قبل أوانهم. وكان هذا أكثر الأمور صعوبة في الهضم.

في النهاية، حفَّزَنا حدثٌ وحيد لاتخاذ قرار الذهاب إلى «البيت». كان ذلك في الخامس عشر من أبريل ١٩٨٦، كنتُ حينها لا أزال أعمل في قطانية. أساعد واحداً من كبار الأطباء في عملية جراحية، وكنا قد أجرينا لتونا قطعاً قيصرياً عندما رأيتُ أعين موظفة إدارية تحدق فيّ على نحو مقلق من خلف زجاج غرفة الجراحة. طلبَت مني الخروج بلغة الإيماءات، فخرجت بعد استئذان الطبيب الرئيسي. قالت «حدث شيء مفزع في لامبيدوزا يا دكتور. تعال وأنظر بنفسك، هناك خبر عاجل على T.G.I[1]». على الشاشة كان المذيع -حينها- إنريكو مينتانا يقول: «هنا روما. وصلَنا للتوّ نبأ ضرب قارب دورية ليبي لبعض الطلقات من على مسافة أربعة أميال، تجاه معدات التواصل الأمريكية على جزيرة لامبيدوزا».

محموماً حاولت الاتصال بالبيت، لكن الخطوط كانت جميعاً مشغولة. في النهاية استطعت الحديث مع أمي.

«ماما، ما الذي يحدث؟».

(١) T.G.I: برنامج الأخبار الأكثر مشاهدة في إيطالية.

«سمعنا ضوضاء قبل قليل، لكني لم أستطيع تمييز أي شيء منها».

ثم كنت على أول طائرة متجهة إلى لامبيدوزا. اتضح أنها لم تكن طلقات من قارب دورية فقط. قبل الخامسة مساءاً من ذلك اليوم، أمر الرئيس الليبي حينها (معمر القذافي) بإطلاق صاروخين على القاعدة العسكرية الأمريكية في الجزيرة، رداً على ضربة أمريكا الجوية على العاصمة الليبية طرابلس. لكن لحسن الحظ سقط الصاروخان في البحر. ولم يتسبّبا إلا بقلق سكان الجزيرة.

كان عمر غراتسيا عامين ونصف العام عندما انتقلنا إلى الجزيرة. وجدَت ريتا وظيفة كمديرة للمختبر الطبي. كانت تلك فرصة نادرة، وكان علينا انتهازها بسرعة، فذلك كان المختبر الوحيد في الجزيرة، قرر ملاكه السابقون السفر إلى جرجنت ولن يعود بوسعهم إدارته.

في الليلة التي أخبرنا فيها والديها بقرارنا، ارتجفَت أمها، لكنها لم تقل شيئاً. بعد دقائق، سمعنا نحيباً عالياً قادماً من غرفة نومها. كنا -أو بالأحرى كنت- نأخذ ابنتها بعيداً عنها. ابنتها هنا ليست ريتا كما قد تظن، وإنما غراتسيا. كانت هي التي ربّت غراتسيا وأطعمَتها ودارت حول المنزل حاملةً إياها في حضنها حتى تنام، بينما كنا ندرس ونعمل. كان هذا كثيراً عليها، كيف لنا أن نأخذ ابنتها الحبيبة الصغيرة منها؟

يوم خرجنا من فيرلا، وضعنا أمتعتنا في سيّارة وصرنا جاهزين لقول الوداع. لكننا لم نجد روزا. الوقت كان يجري ولم يكن بوسعنا

تفويت موعد العبّارة. نادت ريتا «ماما»، أجابها الصمت. «أماه، ستتأخر»، ما زال الصمت هو المجيب الوحيد. بحثنا عنها في كل غرف المنزل، وفي الحديقة وفي الشارع. تسلّلت روزا خارجة لأنها لم ترغب في لحظات الوداع. كان الأمر وكأننا انتزعنا غراتسيا من بين ذراعيها مباشرة. اضطررنا للذهاب دون توديعها. قلب ريتا كان منفطراً في رحلتنا إلى بورتو إيمبيدوكلي، بكت بهدوء كيلا تخيف غراتسيا. شعرَت وكأنها تترك مدينتها الأم وجذورها وأسرتها إلى الأبد.

عرفت ريتا لامبيدوزا مثل راحة يدها، زرناها من قبل مرات عديدة لرؤية والديَّ. على الرغم من ذلك، ما أن بلغت العبّارة المرفأ حتى غرقَت في الحزن. جاءت أسرتي كلها لترحب بنا، ولكنها لم تكن على طبيعتها. عيناها كانتا خاويتين وصوتها كان أجشّاً. أخواتي سألنها «ماذا بك يا ريتا؟ هل كانت الرحلة صعبة؟»، لم تقدر حتى على التفوه بإجابة.

انتقلنا إلى لامبيدوزا في الصيف، وجاء اثنان من أصدقائنا في قطانية لتقضية عطلتيهما معنا، وعندما اقترب وقت ذهابهما سألتهما ريتا بتوتر: «ستعودون لزيارتنا، أليس كذلك؟ لا تتركونا، لامبيدوزا ليست بعيدة، إن أخذتم طائرة ستحضركم في وقت قليل...». كانت تحاول إقناع نفسها أننا لسنا معزولين إلى هذه الدرجة عن العالم.

أحياناً كانت ريتا تطلب مني، في العطلات الأسبوعية الشتوية، أن أخرج معها في جولات بالسيارة. كنا نذهب إلى (كابو بونيتي)

أو (كالا فرانشيزي) أو (كابو جريكالي)، فقط، هذا كل ما يمكنك الذهاب إليه في الجزيرة، حتى لو درت حولها عشر مرات. ما أغضب ريتا جداً. في هذه الأيام، كنت أندم على إقناعي لها بالانتقال إلى لامبيدوزا معي. في كل رحلة طائرة نعود فيها من زيارة أهلها في صقلية، ما أن تظهر لامبيدوزا، قطعة أرض صغيرة في الأفق الواسع، يبدو في عينيها الإحباط.

وجدَت عزاءها الوحيد في عملها، لكن اتضح بسرعة أن إدارة مخبر لم تكن أمراً سهلاً. الأمور كانت مختلفة في ذلك الزمن، كانت العينات تُحلَّل واحدة تلو أخرى عبر عمليات في غاية التعقيد، ويستغرق ظهور النتائج أياماً. شعور ريتا بالذنب فاق ما كانت تشعر به في سيراقوسة، فكرة أنها كانت تقضي وقتاً قليلاً مع غراتسيا أثقلت ظهرها.

ثم ابتسم القدر لريتا في صباح يوم أحد. كانت تنشر الغسيل عندما انطلق رنين الهاتف. المتصل كان أمها: «بما أن والدك قرر التقاعد، نفكر نحن أيضاً في الانتقال إلى لامبيدوزا، إن كان هذا يناسبك بالطبع. هكذا أستطيع الاعتناء بغراتسيا وتستطيعين التركيز في عملك أكثر». قفزت زوجتي في الهواء وكأنها فازت باليانصيب. دارت حول المنزل تضحك وتبكي في الوقت ذاته. لن تشعر بالوحدة بعد ذلك.

لكن سعادتها لن تدوم طويلاً، فاللحظة التي طالما خفنا منها منذ مجيئنا قد حانت.

غراتسيا كانت فتاة صغيرة ذكية، تخطت عامها الأول في المدرسة الابتدائية والتحقت بالثاني مباشرة. نتيجة لذلك لم يكن عمرها قد تجاوز الثانية عشر عندما تحقق كابوس ريتا: سيكون على غراتسيا الرحيل لتلتحق بالمدرسة الثانوية في باليرمو.

عندما أودعناها في مدرسة الراهبات، انخرطت كلٌّ من ريتا وغراتسيا في البكاء. تنام الطالبات جميعاً هناك في مهاجع كبيرة باردة، وهو العكس تماماً مما تمثله بيئة البيت الدافئة. كان هذا أمراً حزيناً، ولكن غراتسيا كانت الأولى فقط. بعد أربعة سنوات ستأخذ الطفلة الأوسط (روزانا) الخطوة ذاتها، وبعدها بأربعة أخرى سيفعلها الأصغر (جياكومو). كل فراق منهم سيأخذ منا ضريبته. قالت لي ريتا ذات يوم «لم يتبقَّ عندي دموع، أحسبُني استخدمتُ مخزوني كله».

على الرغم من ذلك، تظل هناك مرَّة كل سنة نصير فيها جميعاً سعداء. احتفظ أهل زوجتي بمنزلهم القديم في فيرلا، وصرنا نرتب رحلة سنوية إلى هناك برفقتهم، عادة ما يكون ذلك في عيد القديس سيباستيان، القديس الراعي لفيرلا. وكان شقيق زوجتي مايكل يأتي من سيراقوسة للقيانا، وتجتمع الأسرة كاملة لبضعة أيام.

كانت حماتي تقضي ساعات طويلة في المطبخ مثلما كانت تفعل دائماً. بدا الأمر وكأننا نعود إلى الماضي. كنا نتبادل الحديث والمزاح ونقضي وقتاً ممتعاً، كباراً وصغاراً، لعدة أيام متتالية. كل الهموم والأحزان توضع على الرفّ ولا يتوسّطنا إلا الرفقة الطيبة. ما جعلني أتأمل في ما تعنيه فيرلا بالنسبة لي، في ما تعنيه لنا جميعاً.

قطعة صغيرة من البيت



كنت طفلاً نحيلاً إلى حدّ يجعلك قادراً على عدِّ أضلعي، ممّا أثار غيظ أبي. كان يقول: «لِمَ لا تأكل؟».

أثناء العشاء، يجلس أبي على رأس المائدة، وأجلس أنا بجواره، تحت عينيه الفاحصتين. كل ما تملأ أمي به طبقي جاء نتيجة لتضحيات والديَّ، لذا كان لزاماً عليّ أن آكله كلّه بلا اعتراض. أية حركة خاطئة تطلق عنان غضب أبي. ذات مرة عضَّ لسانه في نوبة غضب حتى نزفت منه الدماء. في تلك اللحظات كان يضرب المائدة بقبضته، تهبط ضربته على نفس النقطة كل مرة. مع مرور الوقت، صار في المائدة مطبّ صغير بين مكانه ومكاني.

كلما عدت لزيارة أبويَّ بعدما كبرت، تعود نظرتي لتستقر على تلك البقعة المجوفة، ولا يسعني إلا الابتسام. نيّة أبي كانت طيبة، كنتُ هشّاً ضعيفاً أمام الأمراض، وكان قلقاً عليّ.

حينها، سادت بين الناس قناعة أن شرب دماء الحيوانات المذبوحة مفيد للأطفال، لما تحتويه من حديد وفيتامينات. أذكر

مشاهدتي للحيوانات الحيّة ألتي كانوا يحضرونها من جزيرة (نموشة) وأنا في السابعة من عمري. كانت تُربط على سطح ناقلات الماشية، ثم تنقلها الرافعات إلى قوارب صغيرة سريعة. عندما تصل إلى اليابسة، يربط الرجال عنق الواحد منها إلى واحدة من أرجله ليمنعه من الهروب. فكان الوحش المسكين يلقي بنفسه على الأرض ويمتنع عن الحركة، وكأنه يعلم أن تلك هي رحلته الأخيرة، وأن مصيره الحتمي إلى الجزّار. لتحريكه مرة أخرى، يجتمع الرجال لجرِّه بالحبل أو يقربون لهباً من مؤخرته. جعلني أبي أشرب دماً طازجاً مستخرجاً من عنق حيوان مذبوح، ما عنى أني كنت مضطراً لمراقبة عملية الذبح. يربط الرجال الحيوان إلى عمود، للتيقن من أنه لن يهرب. ثم ينحره الجزار ببرود يجعلني أرتجف، وتنفجر الدماء. عندها يتسلق رجلان ظهر الحيوان ويضغطان على بطنه حتى تخرج منه دماء أكثر. ملؤوا أقداحاً عدة لي ولعدة أطفال آخرين في مثل هشاشتي، وكان علينا أن نشرب. شعرتُ بالتقزز وتهوعت، لكن لم يكن هناك سبيل للهروب. لم أعرف إلا بعدما كبرت أن هذا كله كان بلا جدوى، لا تجعلك الدماء الطازجة أقوى.

ذات مساء، جاء أبي بخنّوص صغير. بنيت له زريبة صغيرة، وسميته بينوتزو[1]. أطعمتُه كل يوم وشاهدته ينمو. كان يسعد برؤيتي ويستطيع معرفتي من على بعد، بالضبط مثل جرو صغير.

---

(١) بينوتزو Pinuzzo هو المعادل في اللهجة المحلية لاسم بينوتشو Pinuccio، وهو اسم تدليل وتصغير للاسم الصقلي الشائع بينو pino، الذي هو نفسه تدليل للاسم الإيطالي جوزيبي Giuseppe.

جمعت له قطع الخبز القديم وبقايا الخضروات والأكل، وقضيت معه وقتاً طويلاً. جعلت من الاعتناء به هواية.

عندما أعلن أبي أن موعد ذبح بينوتزو قد حان، اعترضتُ بشدة. ذرفتُ شلالاً من الدموع عندما أخذوه للجزار. وقبع[1] بينوتزو أيضاً هلعاً عندما شعر بالنهاية تقترب. رفضتُ تناول اللحم على العشاء هذه الليلة. ربما كنت لأعاقب على عصياني، ناهيك عما كان ليحدث للمائدة؛ لكن شقيقاتي وحتى أمي شاركنني الرفض، كان تمرّداً كاملاً. لم يؤدِّ هذا إلا إلى إشعال غضبي أكثر. قلت غاضباً: «طالما لن تأكلوه، لمَ قتلتموه؟ كان صديقي، كان مثل كلب».

بعد عقود، عادت ذكرى بينوتزو وحدها لتقودني عبر سلسلة من أكثر الأحداث غرابة. كنت على متن (بروتيكتور)، سفينة بحرية بريطانية ترسو في الميناء الكبير للناقلات التجارية. على سطحها كان هناك مئتا لاجئ، طُلب مني فحصهم قبل نزولهم منها.

على سلّم الصعود جلست طفلة سودانية صغيرة، تحمل صندوقاً صغيراً أسفل ذراعها. سألتُها ماذا تحمل، فأخرجت من الصندوق قطاً أسود ذا مسحة بيضاء على رأسه. أخبرتُها أننا لن يكون بوسعنا السماح بدخوله الجزيرة دون وثائق تثبت حصوله على تطعيمات، خاصة تطعيم السُعار. وبالطبع لم تكن معها أية وثائق، ما عنى أننا كنا مضطرين لوضع القط في الحجر الصحي قبل أن نعيده إليها.

---

(١) صوت الخنزير في العربية: قُبَاع. [المترجم]

انخرطت سماء -كان هذا اسمها- في بكاء عنيف لدرجة أن جسمها كلُّه كان ينتفض. تمكنتُ من استرضائها بتقديم وعد أننا سنعامله معاملة طيبة وسنُعيده لها في أقرب وقت ممكن. ثم جمعناها بأسرتها ووضعناهم جميعاً في حافلة متجهة لمركز الاستقبال. عدت للقطّ، فقط لأجد الصندوق خاوياً. اغتاظ ربان السفينة مما بدا بالنسبة إليه تعقيداً تافهاً بلا داع، فأطلق سراحه.

متخيلاً ردة فعل سماء، درتُ في جميع انحاء السفينة باحثاً عنه بمساعدة رجل إطفاء، ما زاد من إزعاج الربان الذي أراد رفع المرساة في أقرب وقت ممكن. بعدما عثرنا عليه في النهاية، أرسلناه للسلطات البيطرية في باليرمو.

رغم أنه لم تكن هناك وحدة حجر صحي رسمية للحيوانات في لامبيدوزا، كان يجب إبقاء القطّ في مكان مغلق بعيداً عن الحيوانات المحلية لستة أشهر. تطوعت فتاة محلية تدعى (إليتا) تعشق الحيوانات لأخذه، وتقبّلت تحمُّل كل مسؤوليات الحجر وتكلفته على نفقتها الخاصة.

ما أن عُهد بالقط إلى إليتا حتى ذهبتُ إلى مركز الاستقبال وأخبرتُ سماء وأسرتها بما حدث. قلت «عليكِ أن تتحلّي بالصبر. وغداً سيكون عليكِ ترك لامبيدوزا، لا يمكنكِ البقاء هنا». جزعت سماء، كان القطّ بمثابة أخ لها، حاربَت طويلاً لإبقائه معها سالماً طوال رحلتها. لكن لم يكن هناك ما لديها لتفعله. أعطيتُها رقم هاتفي الشخصي، وطمأنتُها بأننا سنعيد لها قطّها مهما حدث.

اتصلَت بالرقم على الفور، وعندما اقتنعَت أني سأجيبها ولا أحاول خداعها لتستسلم، هدأَت أخيراً.

بعد عدة ايام، اتصلت بي سماء لتسأل عن حال قطّها. وتابعت الاتصال بي بشكل دوري طوال شهور الحجر الستّة. تسألني عن أخباره وتخبرني بمكان تواجدها الحالي طوال الوقت، حتى أعرف إلى أين أرسل قطها. كان من الواضح أنها مخلصة له تمام الإخلاص.

استمرت إليتا في رعاية قطّ سماء وكأنه قطّها. لم يكن لكرمها نهاية، وعندما سُمح للقط أخيراً بالخروج، عرضَت بمنتهى الكرم أن تعيده لأسرة الطفلة بنفسها. كانوا حينها قد استقروا في ألمانيا، إخلاصاً منها لكلمتها أخذته إليتا وطارت إلى برلين، ثم استقلت القطار إلى قرية صغيرة حيث تعيش الأسرة، وطرقت بابهم. كانوا سعداء لرؤية القطّ إلى حدّ أنهم جميعاً انفجروا في البكاء، وكأنهم يرحبون بعودة ابن غائب منذ زمن. اعترفت سماء «كان هذا أفضل حلّ. لا أظن أني كنت سأقدر على إبقائه آمناً».

ارتحلت سماء وأسرتها كثيراً بعد خروجهم من لامبيدوزا. قضوا في مدينة فينتيميليا شهرين. ثم عبروا الحدود الشمالية، التي لم تكن عصية حينها مثلما هي الأن. رغم أنهم لم يكن لهم أقارب في أوروبا، إلا أنهم سمعوا عن ألمانيا أنها أفضل الوجهات، ولهذا ذهبوا إلى هناك. يعيشون الآن في منزل وفَّرته لهم منظمة غير هادفة للربح، بانتظار الاعتراف بهم كلاجئين سياسيين. وبدأ أبناؤهم الدراسة بالمدرسة والجامعة.

أخبرتني إليتا بعد عودتها: «ما أن فتحت القفص، حتى قفز القطّ في حضن سماء. كنت قد نويت قضاء ليلة على الأقل معهم، لكني غيّرت رأيي وعدت من فوري إلى برلين. شعرت أني أتطفّل. بعد كل هذا الوقت، استطاعوا أخيراً تذوّق طعم الحياة العادية التي كانوا يعيشونها قبل أن يضطروا للتخلي عن كل شيء».

ببطء لكن بثقة، كانت أُسرة سماء تعيد أجزاء بيتهم المحطّم إلى أماكنها. ما شهِدتهُ إليتا، كان لحظة إيجادهم لآخر قطعة ضائعة.

عمَر الذي لا يمكن إيقافه

العام ٢٠١١.

رغم كوننا في ذروة الربيع العربي، إلا أن لاميدوزا لم تزل في شتائها. في ذروة صقيع مارس، بلغ لاميدوزا سبعة آلاف مهاجر لا يفصلهم عن بعضهم إلا بضعة أيام. كان البرد ينخر العظام، وسيارات الإسعاف تسعى رائحة غادية بين العيادة والشاطئ. عملنا طوال الليل والنهار.

أغلب اللاجئين كانوا من تونس. كانوا في كل مكان: في الشواطئ والخلجان والحقول. ذات يوم، جاءني خبر أن مجموعة تمكنت من إرساء قواربها في (جزيرة الأرانب Isola Dei Conigli). اختفى أغلبهم عن الأنظار عدا فتى يُدعى عُمر، وُجد تحت أحد القوارب. كان في حالة خطرة، هزيلاً ويعاني من الجفاف والحمى التي سبّبت له الرعشة.

أخذناه للعيادة، علّقنا له المحاليل لترطب جفافه، وعندما لم تتحسن حالته، طلبتُ مروحية طوارئ لتنقله إلى مستشفى في

باليرمو. احتاجوا إلى عشرة أيام ليعيدوا لُعمر قدرته على الوقوف مجدداً. لكنه حينها، بدلاً من أن يشد الرحال إلى ألمانيا أو فرنسا أو هولنا، قرَّر عُمر العودة إلى لامبيدوزا. أتذكر استقبالي له في المرفأ وكأنه كان البارحة. تحول من الفتى المريض الضعيف الذي وجدناه، إلى قوي واثق مليء بالطاقة مثلما هو حال كل من في السابعة عشرة مثله.

أسرة لامبيدوزية من أصدقائنا رحبّوا بعمر، كانوا سعداء باستضافتهم له في بيتهم. لكن بعد عدة أشهر هاتفني رب الأسرة وقال «بيترو، لا نستطيع استقبال عمر أكثر من هذا. الأمور ليست على ما يرام معي، أتحمّل نفقات أبنائي بصعوبة». عندها قررنا أنا وريتا استقباله عندنا. قضى عندنا عدة شهور، لكنه اشتاق للحصول على استقلاله في النهاية، ولم يرغب في الحياة عبئاً. فتواصلنا مع أصدقاء لنا في روما، حيث سينتهي الحال بعمر منهياً دراسته هناك وعاملاً كمترجم.

بعد سنة تقريباً، عاد عمر إلى لامبيدوزا بعد أن استطاع الحصول على عمل في مركز الاستقبال. كان مترجماً ماهراً، قادراً على الحديث بعدة لغات. لكن لسوء الحظ تعرّض لمشكلة مع الإدارة. كان دوماً يأخذ صفّ المهاجرين في مواجهة زملائه، نظراً لتفهّمِهِ معاناتهم التي عاشها. لم يقدر على التهاون أمام جملة قد تبدو فظة أو أمام أقل خطأ غير مقصود من زملائه، الذين يقومون بوظيفة صعبة في حصر وإدارة أفراد وأشياء لا حصر لها، ويتعرضون لشتى أنواع

المشاكل. أكثر من مرة يتزعم مجموعة من اللاجئين المطالبين بوجبة أو بطانية إضافية، أو هؤلاء الذين أرادوا الخروج من لامبيدوزا ومتابعة طريقهم لوجهتهم التالية.

استدعاني رئيس المركز عدة مرات وحذرني «إن تابع هذا السلوك، سنضطر لطرده». حاولت أنا وريتا أن نقنعه بالمنطق، شرحنا له أن عليه قبول التراتبية الهرمية في المركز، وعليه أن يتفهم الصعوبات التي تأتي مع إدارة آلاف الناس. أجاب «أتعرفان كيف يشعرون؟ هل عشتما أبداً لحظة تضطران فيها للاعتماد على رعاية آخرين لكما؟ أية إساءة لاستخدام القوة معهم هي أمر غير مقبول بالمرة. أتمنى فعلاً أن تتفهّما». تفهمنا بالفعل، لكننا لم نقدر على قول ذلك. وإلا كنا جعلنا الأمور أسوأ.

بعد أقل من عامين استقال عُمر من المركز، وقرر الخروج من لامبيدوزا ليبحث عن عمل في مكان آخر.

تدريجياً، أثناء الفترة التي عرفنا فيها عمر، عرفنا أكثر عن خلفيته وحياته السابقة. عُمر يتيم، تبنته أسرة معدمة من قرية بالقرب من صفاقس التونسية. شغف بأمه بالتبني حبّاً، كان ليفعل أي شيء من أجلها. عندما أُصيبت بسرطان الثدي، واتضح أن تكلفة العلاج أكثر مما تتحمّله الأسرة، قرر عمر أن يحاول عبور البحر إلى إيطاليا، ليبحث عن وظيفة تمكنِّه من إرسال النقود إلى البيت. وهو ما فعله بالضبط، احتفظ لنفسه بيوروهات قليلة، وأرسل بقية راتبه لأخته، لعلاج أمِّه.

ذات يوم، تلقّى عمر خطاباً من صفاقس. شعر بنذير سوء، رفض حتى أن يفتحه، تركه على المائدة واختلى بنفسه وبكى. فتحت ريتا الخطاب. كان إحساس عمر صحيحاً، لم يفلح العلاج، ماتت أمه.

وجدته ريتا بالخارج، احتضنته بعمق. جلست بجواره على الشاطئ ومررت أصابعها بين شعره مثلما تفعل مع طفل. في النهاية توقَّف عن البكاء، وراح في النوم بين ذراعيها. وجد أمّاً جديدة وهو في التاسعة عشرة، على الرغم من ذلك، لا يزال يدمع كلما تذكر أمّه بالتبنّي.

عاش عُمر معنا فترة طويلة، لكنه بطبيعته غير قادر على الاستقرار. وجدنا له وظيفة في مركز طالبي اللجوء ببلدة (مينيو) بالقرب من قطانية، ليتضح أن الوضع هناك أقلّ مناسبة له مما كان في لامبيدوزا. عجز عن التعامل مع استفزاز ورياء وجهل بعض العاملين. تلقيت مكالمات عديدة من المديرين. «دكتور بارتولو، إن تابع عُمر مثل هذه التصرفات سنضطر أن نطلب منه الرحيل». توسلتُ لهم أن يصبروا عليه، رغم إدراكي أن حديثي لن يعني شيئاً. عمر لا يقدر على الإذعان، لأنه لن ينسى أبداً ما مرَّ به. يشعر أنه مجبر على الاصطفاف بجوار كل من يجد نفسه مضطرّاً للبقاء في مكان يتمنى لو هرب منه، من يحتاج للخروج والبحث عن وظيفة وإرسال النقود لأهله، ليعينهم على تحمل مصاعب الحياة.

بعد رحيله عن مينيو، عاد عمر ليعيش معنا لفترة. ثم قرر الرحيل إلى ألمانيا، لكن الشرطة هناك منعته من الدخول، إقامته

القانونية كانت صالحة فقط لإيطاليا، الشيء نفسه حدث مع فنلندا. يبدو أن الاتحاد الأوروبي ليس اتحاداً للبشر، وإنما للحدود والجدران. ظلّ عُمر منذ ذلك الحين يهيم على وجهه بين مالطة والسويد، باحثاً عن وظيفة، والأهم، باحثاً عن هوية جديدة، عن حياة لا يغشاها الحزن والغضب. أعرف جيداً أن عمر سيعود إلينا في ما بعد أكثر من مرة، لكن أعرف أيضاً أننا لن نستطيع إبقاءه معنا أبداً.

إرادة الموج

أمي لامبيدوزية، لكن عندما كانت طفلة، عاشت أسرتها ضعيفة الحال لفترة في مدينة سوسة التونسية. كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما عادت إلى لامبيدوزا. عندها رآها أبي لأول مرة ووقع في حبها. كان مثلها أيضاً من أسرة فقيرة، لكنه كان عازماً على صنع شيء لنفسه. قبل وقت طويل، قرّر المخاطرة بما كسب من أموال قليلة وبنى لنفسه قارباً. سمّاه (كينيدي)، على اسم الرئيس الأمريكي الذي قُتل قبلها في العام نفسه.

طلب أبي من شقيق زوجته (نيكولا)، أو الخال (كيلينو) كما عرفته دوماً، أن يكون شريكه. ولد الخال كيلينو في سوسة، لكن لم تطأ قدماه أرضها منذ عادت الأسرة إلى الجزيرة. كان رجلاً استثنائياً بحق، ارتسمت على محيّاه دوماً ابتسامة ساخرة من نوع ما، لا تستطيع أبداً أن تحدّد إن كان يمزح أو كان جاداً. صار صيّاداً ممتازاً، حتى عندما لم يكن على سطح كينيدي، كان يقضي وقته يصطاد بشباك الترولة ذات الخطاطيف المتعددة. كان لديه قارب

خاصٌ صغيرٌ، سماه بيترو، على اسمي. ذات يوم، عدت وأبي من الخارج لنجد أمي غارقةً في دموعها؛ خرج خالي كيلينو في قاربه ولم يعد. خرجنا فوراً للبحث عنه، مع كل صيادي لامبيدوزا.

هناك قاعدة غير مكتوبة لن تستطيع استيعابها إلا إن كنتَ قد وُلدتَ في جزيرة معزولة مثل جزيرتنا تقول: من غير المقبول، بل ليس من الوارد أصلاً، ترك انسان آخر تحت رحمة الموج، أيّاً كانت هويته. ذاك هو قانون البحر. يُبجَّل هذا القانون ويُطاع بين معشر الصيادين، إلى حد أنه بعدما منعت الحكومة الإيطالية انتشال المهاجرين من البحر إلى القوارب، يخالف الصيادون القانون باستمرار وينتهي بهم الحال دوماً في المحكمة.

بحثت الجزيرة كلها عن الخال كيلينو. قسّمنا البحر إلى مناطق تشمل ما يزيد عن ٢٥ ميلاً أمام الجزيرة. لكن البحث لم يؤدِّ إلى نتيجة، لم نعثر على أدنى إشارة تدلّ عليه. اشتركت القوات البحرية في البحث وأرسلت مروحيات، لكنها كانت أيضاً بلا جدوى. لم نستطع إيجاده. وزادت تخميناتنا عبثية: هل غرق قاربه؟ هل اُختُطِف كيلينو؟

أرسَلَ خفرُ السواحل الرسائل لسلطات كل موانئ البحر الأبيض المتوسط. أما في البيت، فقد تضاءلت أمالنا في إيجاده.

بعد أسبوعين، رنّ هاتف إدارة الميناء، اتصال من خفر سواحل سوسة. عثروا على قارب صغير في الميناء، يحمل جثّة في داخله. أسرعتُ أنا وأبي في طريقنا إلى سوسة على الكينيدي يصحبنا عددٌ

من الصيادين. ما أن بلغنا ميناء سوسة حتى استطعنا تمييز القارب، كان بيترو. وجدوا جثة الخال كيلينو بعد أن جرفتها الأمواج إلى سوسة، في جنازة بحرية من نوع ما. عندما رأيناه، فمه كان منحنياً في قوس ينظر لأعلى، راسماً ابتسامته الساخرة المعتادة.

وُلد في سوسة وأعاده الموت إلى سوسة. قيل لنا أنه أُصيب بأزمة قلبية بينما كان يصطاد، وظل محرِّك قاربه يعمل، فأخذه القارب إلى تونس في صدفة قدرية عجيبة، وكأنه أراد أن يُدفن في التراب التونسي. في اليوم التالي وضعناه على سطح الكينيدي وعدنا إلى لاميدوزا، ربما لم يكن علينا فعل ذلك.

لطالما احتلت تونس مكانة خاصة في قلب أمي. أحضرت معها من سوسة شيئاً تعتبره أغلى ممتلكاتها وتحافظ عليه مثل أبنائها. كسكاساً[1] أخضر من التراكوتا اللامع، حفظت فيه كلَّ ذكرياتها التونسية. وكلما قضت الساعات الطوال في صنع الطبق التونسي الأصيل، تعود تلك الذكريات لتغمر قلبها.

أحببت مشاهدة أمي تطبخ. كانت تأخذ إناءً كبيراً مليئاً بالمياه المغلية، وتضع الكسكاس فوقه، وتسدُّ المسافة بين الإنائين بالعجين، لتمنع بخار الماء من التسرب. ثم تضع السميد على المائدة الخشبية، وتبدأ في العجن، كان ذلك هو الجزء الأصعب في الوصفة. كانت أمي سيدة قوية مهيبة. تغمس أصابعها الطويلة في السميد، ثم تخلطه

(١) إناء من معدن أو فخار مقعّر، يستخدم لصنع الكسكس، الطبق الشهير في شمال إفريقية والمغرب العربي. [المترجم]

برفق بمزيج من الملح والمياه، وتمزج المكونات بحركة دائرية محببة. تبدو حينها وكأنها تنحت تمثالاً فنياً. وأكاد أكون متيقناً، أن عقلها كان يسرح في مشاهد وروائح قادمة من الماضي البعيد بينما تعمل.

وفي اللحظة المناسبة، تغمس السميد في الكسكاس. ثم تصنع مرقاً من السمك الذي يحضره أبي، بما أن السمك كان غذاء أساسيّاً في بيتنا، وعادة ما كانت تزينه بالخضروات الطازجة من الحديقة، فيتحول إلى مهرجان من الألوان والنكهات. حتى أنا أحببت الكسكس الذي تطبخه أمي، رغم أني طالما كنت انتقائياً في ما آكله من الطعام. كان طبقاً بسيطاً وصعباً في الآن ذاته، الطبق الذي يجمع حوله سكان جانبي البحر الأبيض المتوسط جميعاً.

الأسرة التي سكنت في البيت المقابل لبيتنا، كان حالهم أصعب من حالنا. ما زلتُ أرى أمام عيني حتى الآن أمي في مريلة المطبخ، تملأ صحناً فخارياً بالكسكس، وتعبر الشارع لتقدمه لجارتها وصديقتها بابتسامة ساحرة. حتى الفقير في جزيرتنا يشارك ما لديه مع الآخرين. لم تكن هناك أنانية، لم تكن هناك حواجز.

في لامبيدوزا مطعم وحيد يقدم كسكساً ممتازاً يشبه ما كانت أمي تصنع. كلما تذوّقتُه، شعرت وكأني طفل صغير من جديد. تعود إليّ كل ذكريات الطفولة، كما حدث لذكريات أمي التي ترجع لها من تونس عندما كانت تطبخ. طباخة ذلك المطعم ليست إلا أختي (كاترينا)، التي تقدر القيمة الثقافية للطبق، وتحفظ جزءاً صغيراً من إرث أسرتنا.

شقيقاتي الأخريات أيضاً طباخات ماهرات. تعلَّمن جميعاً من طرق أمي المبتكرة في تقديم السمك.

عندما كنا أطفالاً، كنا نملّ من أكل السمك، وتتعب أمي المسكينة في ابتكار أطباق جديدة لتحضرها لنا. ذات مساء قدَّمت لنا طبق (بولبيتوني *polpettone*) يسيّل اللعاب، عبارة عن رغيف من اللحم والبيض والمرتديلا والجبن. هتفنا: «أخيراً، لا مزيد من السمك الليلة». أكلنا بِنهم، مستمتعين بمذاق كل لقمة. عندما انتهينا من الأكل، نظرت أمي إلينا، وسألتنا: «أأحببتم الطعام؟»، أجبنا بصوت واحد: «نعم يا ماما، أخيراً لحم».

قالت: «لا، لقد كان هذا سمكاً». كانت ببساطة قد مزجت لحم السمك بخليط من لحم (اليابسة). وأبهرتنا مرة أخرى.

أعظم هدية

ذات يوم كنت في العيادة أقلِّب في بريد اليوم، اكتشفتُ مفاجأةً سعيدة. خطاب من المُدرِّسة الأولى في مدرسة ابتدائية بمدينة بيزا. فاز تلاميذها بالمركز الأول في مسابقة محلية لطلبة المدارس، موضوعها «الأبطال المجهولون»، تعني بتكريم الأفراد الذين لا تذكرهم كتب التاريخ، لكن أفعالهم تعلِّمنا الكثير. حصل الطلاب على خمسة آلاف يورو لترشيحهم بطل المقاومة في فترة الحرب العالمية الثانية (آتوس مازانتي). حينها سمعوا عن الصغار الذين يأتي بهم البحر إلى لامبيدوزا، فقرروا استخدام الجائزة لشراء الألعاب للأطفال الأقل منهم حظاً. تلقى مازانتي أيضاً جائزة، وقرر أن يتبرع بها للقضية ذاتها. سألت المدرسة في خطابها، إن كان لدينا مانع في العيادة من استقبال الألعاب وتوزيعها على الأطفال المهاجرين.

بعدها حلَّ علينا طوفانٌ من الألعاب. أفضل ما في تلك الهدايا كان أنها هدية من الأطفال أنفسهم. وبدلاً من أن يرسلوا النقود لشراء الألعاب، اشتروها بأنفسهم وأرفقوا معها ملحوظات صغيرة

بالإنجليزية تقول: «أعزائي الأطفال، تركتم بلادكم بحثاً عن حياة أفضل في أوروبا. نحن الأطفال علينا أن نغيّر العالم، وتتبّع خطى أولئك الذين ضحوا بكل شيء من رجال ونساء العالم كي يغيّروا العالم قبلنا». وبين الطرود وجدتُ هدية موجهة لي، تأثّرتُ بها جداً، ولازلت أحفظها في أمان. بعد وصول الهدايا بفترة وجيزة، وصل مئات من المهاجرين على قاربٍ واحد، بينهم أكثر من مئة وخمسين طفلاً. حمّلت سيارتي بالألعاب وذهبت إلى مركز الاستقبال. لكن الأطفال لم يعودوا هناك. كانوا كثيرين لدرجة تحتِّم إرسالهم إلى محطتهم التالية فوراً. في البداية كنت محبطاً، لكني أدركت أن هذا أفضل. هذا يعني أنهم اقتربوا من بيوتهم الجديدة خطوة أخرى.

كنت في طريقي إلى الخارج عندما سمعتُ صوت أحد العاملين في المركز يناديني: «دكتور، دكتور، لا يزال هناك طفلان بالمكان، أترغب في رؤيتهما؟»، درت على كعبي وعدت من فوري، قضيت الساعات التالية ألعب مع طفل وطفلة في غاية الجمال.

في الثامن من مايو ٢٠١٦، صباح يوم أحد مشمس، كان في المركز كثير من الأطفال وأمهاتهم، وكانوا جميعاً أصحاء. ملأتُ ورفاقي حقائب سياراتنا بالألعاب وذهبنا للمركز. متبرّع آخر قدم صينية عملاقة عامرة بالبسكويت المرسل للأطفال المُنقَذين. قضينا جميعاً وقتاً رائعاً، لم يمرّ علينا عيد أم[1] بهذا اللطف من قبل.

---

(١) يُحتفل بعيد الأم في إيطاليا وعدد من البلاد في يوم الأحد الثاني من شهر مايو كل عام. [المترجم]

لا تزال في العيادة بعض الهدايا مُغلّفةً بأغلفتها اللامعة. عندما يأتي طفل صغير، نحبّ أن نقدم له هدية. نفتح الهدية معاً، ثم نذهب لغرفة اللعب، ويقضي الأطفال وقتاً طيباً هناك بينما يكشف الأطباء على أمهاتهم. وعندما يحين وقت رحيلهم، نخبرهم أن بوسعهم أخذ ما يحبون من الألعاب معهم. المدهش أنهم لا يأخذون أبداً أكثر من لعبة أو اثنتين، وكأنهم يحترمون المكان، ويحترمون حقّ الأطفال الآخرين في اللعب بعدهم.

قدس وفادوما

(فادوما): سبعة وثلاثون عاماً، صومالية. (قدس): خمسة عشر عاماً، إرتيرية. والقائمة تطول. تمتلئ ذاكرة USB خاصتي بأسماء ووجوه النساء، منهن الراشدات ومنهن القاصرات، أمهات وبنات وزوجات. أرتب أسماءهن وأحفظ حكاياتهن في أرشيف دقيق.

أفعل هذا لأني أرغب أن لا يضِعن من الذاكرة. أسافر في جميع أنحاء أوروبا أردِّد حكاياتهن، وأحاول إفراد مساحة منفردة كافية لكل منهن. أتمنى أن تساعد قصصهن الناس في فهم ماذا يحدث. فعلَت هذا معي على الأقل، ساعدَتني لفهم ما الذي تغير عبر الزمن، وما نوع المشاكل التي نتوقع مواجهتها.

مرَّت كلٌ من فادوما وقدس بخبرتين متباينتين تماماً. جاءتا إلى أوروبا من مكانين مختلفين للغاية، وإن كان يقودهما الدافع نفسه: الهروب من الهمجية.

جاءت فادوما إلى لامبيدوزا بواسطة طائرة مروحية. قابلتُها في مساء ربيعي عام ٢٠١٦، بعدما تلقيت مكالمة من قائد سفينة

عسكرية. أنقذوها مع ضحايا آخرين من بين حطام سفينة تغرق. كانت في حالة خطرة. بدت وكأنها مشلولة جزئياً، وحسبوا أنها تعاني من سكتة دماغية. طلبتُ من القائد أن يُسرع، إن كان تشخيصهم صحيحاً فنحن لا نملك دقائق لنضيعها.

قابلتها وزملائي في رقعة الهبوط وهرعنا بفادوما إلى العيادة. لحسن الحظ لم تعانِ من سكتة، شللها الجزئي سبق رحلتها. لكنها كانت في حالة سيئة. حالتها أعاقتها عن الحركة، وغرق السفينة تسبب في إضعافها أكثر.

كانت في السابعة والثلاثين من عمرها، لكنها بدت كامرأة مسنة. شوَّهَ المرضُ جسدَها، تبدَّلَ وجهُ المرأة الجميل بعد أن شوَّهها المرض الجسدي والصدمة النفسية حتى تغيرت ملامحه ولم تعد تعرفها. عرفتُ أنها كانت تسافر وحدها، وعندما سألتُ أكثر لم تتردد في الإجابة، بل على العكس، تحدثت بمنتهى الحرية، لأنها كانت بحاجة يائسة لمساعدتنا.

أخبرتني أنها كان لديها سبعة أطفال. بعد الولادة الثالثة أصابتها سكتة دماغية أدت لشللها الجزئي. قالت:

«قبل ستة شهور، جاءت الميليشيا لبيتنا في مقديشو، حيث أعيش مع زوجي وأطفالي. أصابنا جميعاً الرعب. نعرف جيداً إلى أي مدى قد يذهب الجهاديون. صرخوا فينا جميعاً، أهانونا وهدّدونا. توسّل لهم زوجي لإطلاق سراح النساء والأطفال وليأخذوه هو معهم. كان خائفاً من اختطافهم أو اغتصابهم لبناتنا

وإرغامهم على الزواج من أفراد الميليشيا المسلحين، حاكمين عليهن بقضاء حياة مظلمة من العنف والقمع. كنا جميعاً منبطحين بوجوه تلمس الأرض. بكينا، وحاولنا كتم الصراخ كيلا نستفز غضبهم.

لم يكن زوجي ناشطاً أو مقاتلاً. لم ينتمِ لأي جماعة قد تعارض الجهاديين. حاول دوماً أن يبقى بعيداً عن الصراع، جعل جلَّ تركيزه على عمله والاعتناء بأسرته.

وبينما كان يحاول إقناع الرجال بتركنا نذهب، انتزعوه من بيننا وأرغموه على الركوع في منتصف الغرفة، وقطعوا رأسه أمام أبنائه السبعة. إنهم حيوانات ومتوحشون متعطشون للدماء. شاهدتُ بأم عيني رأس زوجي يتدحرج ليستقرّ بجوار الجدار.

نظروا في عينيّ مباشرة بابتسامة ساخرة مجنونة، وخرجوا من الباب نفسه الذي دخلوا منه».

بموت زوجها، وجدت فادوما نفسها وحيدة دون من يمكنها الاتّكاء عليه لإعالة أسرتها. فتركتهم في رعاية أمها وسافرت إلى أوروبا باحثة عن عمل. لم يكن بوسعها إحضارهم معها، ولم يكن في وسعهم أيضاً البقاء جميعاً في الصومال والموت جوعاً. سألتني إن كنت أقدر على مساعدتها في إيجاد وظيفة.

لكن أية وظيفة أساعدها بها مع حالتها المرضية؟ لن تستطيع إيجاد عمل كمنظفة منازل. الحل الوحيد هو أن تعود للصومال بينما ترعاها منظمة غير ربحية ما، وربما تسمح لأبنائها أن يتبنّاهم

المتبرعون في الخارج مثلاً. وعدتُها أني سأبحث لها عن فرصة من هذا النوع، وما زلتُ أفعل إلى الآن.

قدس في الخامسة عشرة من عمرها. وصلت لاميدوزا بعد فادوما بأيام. فتاة إريترية رائعة تحسب نفسها راشدة بينما لا تزال تبدو طفلة. بينما كنت أفحصها تذكرت البال الرائق الذي تمتعَت به بنتاي عندما كانتا في مثل عمرها، وضِعتُ لوهلة في ذكريات تحولهن التدريجي من الطفولة إلى النضج.

انتزعني حينها صوت قدس من حلم يقظتي. «أحسبُني حاملاً».

فكرت: يا إلهي، فتاة أخرى تعرضت للاغتصاب.

طلبتُ مترجماً، وجلسنا معاً. بدأت قدس في الحديث. أخبرتنا أنها تركت إرتيريا بنفسها، مسافرة مع مجموعة من الرجال والنساء الراشدين، في النهاية بلغت معسكر لاجئين كبير في إثيوبيا.

«دفعتُ ثمانمئة يورو لأخرج في الرحلة. من إثيوبيا أخذونا إلى السودان، حيث انتظرنا لشهرين، ثم أخذونا إلى ليبيا.

سألتها: «لمَ تظنّين أنك حامل؟»، قبل أن أسأل السؤال الآخر الذي يجب سؤاله: «هل أنت ناشطة جنسياً؟ هل انخرطت في علاقة جنسية مؤخراً؟ أو هل أجبرك أحدهم على ممارسة الجنس؟».

قالت بسرعة: «لا لا، لم يغتصبني أحد ولم أقم بعلاقات». قالت لنا إنها لم يأتِها الحيض منذ أربعة أشهر. ثم اضافت أنهم أعطوها حقنة في معسكر اللاجئين، وأخبروها أنها بهدف أن لا تصبح حاملاً إن

أُغتصبت. عندها فهمت ما حدث. أعطاها المهربون حقنة منع حمل تؤدي إلى تخريب مدمر في التوازن الهرموني، وتسبب انقطاع طمث مبكر. تأثير الحقنة مؤقت، ولكنها قد تؤدي إلى آثار جانبية خطيرة طويلة الأمد، خاصة في حالة الفتيات المراهقات.

قالت قدس: إن هذا كان أمراً عادياً، وإن المهربين لم يرغموا أحداً على أخذ «العلاج»، عرضوه فقط على النساء اللواتي طلبنه. لم أصدِّقها، لأني أعرف أن تعقيم نساء المهاجرات المؤقت لا يفيد إلا المهرِّبين الذين يرغبون في بيعهن في التجارة الجنسية عندما يصلن.

تجّار البشر الذين يبيعون النساء للدعارة لا يرغبون في إثارة أي ضجيج. في نيجيريا، أحياناً ما يعرِّضون النساء لطقوس قبلية، «يلقون عليهن التعاويذ» حتى يعتقدن أن عليهن الانصياع لما يقال لهن، وإلا ستقع العواقب الوخيمة عليهن وعلى عائلاتهن. يرغب المهرِّبون من ضحاياهن غير الواعيات بحقيقة ما يجري، أن يكنَّ جاهزات للتأجير فور وصولهنَّ دون تأخير.

أَجريتُ أشعة موجات فوق صوتية على قدس، لم تكن حاملاً. حينما أخبرتها بذلك داخت من فرط الارتياح.

كان من الواضح للجميع أنها كذبت علينا. جسدها النحيل تعرض للاعتداء. أعتقد أن عدد النساء اللواتي يتعرضن للاعتداء الجنسي يتصاعد بشكل مفزع، خاصة وأن كثيراً منهن تلقين حقن منع الحمل. وإن لم تكن الواحدة منهن حاملاً، تصير أكثر تردداً في الاعتراف بما عانت من وقوعه.

سألتُ قدس لماذا شعرت أنها مضطرة لمغادرة بلدها. قالت «لا سبيل لبناء حياة لنفسك في إرتيريا. أرغب في الذهاب إلى المدرسة، في أن أكون شخصاً مهماً، حينها سأحضر أمي وأخواتي ليعيشوا معي».

قدَحت كلماتها شعلة الرقة في قلبي. تمنيتُ، وما زلت أتمنى، ألّا تقع في فخ الدعارة. فهي لا تزال قاصرة، ما يجعل من الممكن إيداعها في بيت يسمح لها بالالتحاق بالمدرسة، وتحقيق أحلامها.

حكمة أنور الصغير

«دكتور بارتولو، هناك مئة وعشرون فرداً قادمون على قوارب تدخل المرفأ الآن. نتوقع مجيئك».

مثل هذه المكالمات تأتيني طوال الوقت. تمضي أحياناً أيام وليالٍ طويلة لا ينقطع فيها الخط مع سلطات المرفأ والحرس المالي. ذهبتُ إلى المرفأ وانتظرت. وبعدما قضيت هناك بضع ساعات في البرد، تنثر الرياح على قميصي قطرات المياه الباردة، تساءلت في نفسي عن عدد الساعات التي يضطر اللاجئون لقضائها بين الأمواج والبرد الناخر للعظام. عادة ما تكون أول مرّة يرون فيها البحر هي المرّة التي يعبرونه فيها. لم يتخيلوا حتى من قبل أن لقاءهم به سيكون بهذا الشكل.

في هذا الصباح، كان بصحبتي طبيب شاب أراد أن يفهم ما الذي يدفعنا للعمل في مثل هذه الظروف المحطِّمة للأعصاب. عندما رأى شاطئ (فافالورو بيير) الشهير، صُعق. قال: «إنه في حالة رثة وذو إضاءة سيئة، لا يشبه ما نراه على التلفاز». قلت له:

«لا يهم كيف يبدو. ما يهم هو ما نفعله وليس أين نفعله. كل دقيقة تمضي قد تعني حياة أخرى تضيع».

كان بوسع الشاب أن يدرك أنه داس على جرحي بتعليقه. لطالما طالبتُ السلطات بوضع إضاءة أفضل للمرفأ، وأطعمة ومشروبات للقادمين الظامئين الجائعين، والأهم من كل ذلك: دورات مياه. لا يواجه الرجال عادة صعوبات في قضاء حاجتهم على القوارب، لكن النساء عادة ما يسألن عن الحمامات ما أن تلمس أقدامهن الأرض. تُصاب الآلاف منهن بمشاكل في المثانة، بسبب الحياء الذي يمنعهنَّ من تلبية نداء الطبيعة.

مثلما هو الحال كل مرّة، كان على القاربين كثيرٌ من النساء وعددٌ من الأطفال، صعدنا إلى سطح القوارب لفحصهم. لم تكن هناك أمراضٌ معدية، كان هناك فقط كثير من الجفاف والحمّى. أول من لفت نظري طفلان صغيران وفتى أكبر سنّاً. تمنيت لو كان بوسعي السماح لهما بالنزول فوراً. عمر الصغيرين كان عامين وأربعة أعوام، متعلقين بأمهما وكأنهما خائفان من ضياعها منهما في الزحام. الفتى الأكبر كان يقف على حافة القارب، وحيداً.

ذهبتُ إليه، كان اسمه أنور من نيجيريا. أخبرني أن ميليشيا (بوكو حرام) المتعصبة المسلحة، التي تدمِّر كل ما يقع في طريقها، قتلت أباه. شعرتُ بكراهية نقية لا تشوبها شائبة في صوته عندما تحدث عن بوكو حرام. من الواضح أنه أراد البكاء، وأردت أن أعطيه الفرصة ليفرغ دموعه. كان في العاشرة فقط من عمره، لكنه

لم يبكِ؛ القسوة التي عرفها أجبرته على النضج أسرع من اللازم. لم يعد طفلاً.

أعطته أمُّه مدّخراتها القليلة وتركته في عهدة صبي لا يكبره كثيراً. قالت له: «عليك أن تحميه، أن تساعده. خذه بعيداً، لا أريده أن ينتهي به الحال مثل أبيه. أريده أن يكون على الأقل آمناً». لم يرغب أنور في ترك جانب أمه. خاف عليها من بقائها وحيدة، لكن لم يكن لديه خيار آخر.

ما أن عبرا الحدود الليبية، حتى هجره حاميه الصغير. «أنت عبء ثقيل على ظهري. عليك أن تعتني بنفسك من الآن فصاعداً». قال أنور بصوت مرتجف: «مشيتُ وحدي لأيام. ثم قابلتُ رجلاً مسناً اعتنى بي. لم يكن سيئاً مثل الآخرين الذين يحبسونك في غرفة ويعذبونك. كنتُ سعيد الحظ، اعتنى بي الرجل حتى وجدتُ قارباً أرحل به. وضعَت أمي مصير أسرتي كلها بين يديّ. أعطتني كل ما نملكه من نقود. عليَّ أن أصل وأجد وظيفة بسرعة. إن عملت بجدٍّ كافٍ، سيكون بوسعي العودة لها ولشقيقاتي. الله أكبر».

الآن أنا من كنت أحاول مداراة دموعي. شعرتُ وكأني أحمق في حضور حكيم. عمره ليس أكثر من عشرة أعوام، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. من أين استحضر أنور قوّته الداخلية؟ كيف يجد المعنى في كل العبث الذي جرى له؟ ماذا سيكون رأيه فينا عندما يكبر؟

عدتُ للبيت هذه الليلة مضطرباً. أخبرتُ ريتا بمحادثتي مع

أنور. أخبرتها أني تمنيت أخذ أنور وطلب حضانته مؤقتاً، مثلما فعلنا مع عُمر. قالت «بيترو، هذا ليس حلاً. هناك الكثيرون في مثل حال أنور، لا نستطيع إنقاذهم جميعاً بهذه الطريقة». رغم أن ما قالته كان مؤلماً، لكنها كانت على حقّ.

نعمة من السماء

عندما حملت ريتا أول مرة، أخبرتُ أبي فوراً. أثارَ الخبر فرحته، خاصةً أني الوحيد من نسله الذي سيحمل اسم الأسرة بعده، فأخي ميمو لن يكون قادراً على الإنجاب. أخذ يسأل: «هل قمتم بأشعة فوق صوتية؟»، متمنياً أن يكون حفيده ولداً. عندما علم أنه سيحظى بحفيدة، خاب أمله قليلاً، لكنه ظلَّ مبتهجاً، فوجود حفيد، أياً كان نوعه، أمرٌ يسعده.

وعندما حملت ريتا للمرة الثانية، انتعشت آمالُ أبي. لكن مجيء طفلة أخرى ضايقه. الولادة الثانية كانت قيصرية مثل الأولى؛ حملٌ ثالث سيكون أمراً خطيرً. لكنها حملت على الرغم من ذلك، بعد عدة سنوات. هذه المرة تمنينا جميعاً مجيء ولد.

في صباح يوم صيفي، أثناء الأسبوع العاشر من حمل ريتا الثالث، ذهبتُ لصيد السمك. كنتُ متعباً ومضغوطاً، والصيد كان من بين أشياء قليلة تريح أعصابي؛ أجلس وحدي في قاربي، في منتصف البحر الواسع، يحيط بي الصمت التام. يطلق الصيد سراح الأفكار

من رأسك، يسمح لك بإيجاد قليل من السلام. حتى الآن، لا أجد ترياقاً للاكتئاب والإرهاق بعد ليالٍ ملأى بالكوابيس غير الصيد. ابتعدت عن لاميدوزا أربعين ميلاً، وألقيت صنارتي. أخبرني قارب على بعد عشرين ميلاً عبر الراديو أن عمي (إغنازيو) يحاول التواصل معي من قاربه. كان عمي أبعد من أن يتصل بي بنفسه، فأرسل لي رسالته عبر القارب الآخر: يجب أن أعود إلى المنزل بأقصى سرعة، لأن ريتا ليست بخير.

درتُ بالقارب حول نفسي وشغلتُ المحرك بقوته الكاملة، وانطلقت بأقصى سرعة ممكنة، برغم ذلك استغرق الطريق ساعتين من الرعب حتى وصلت، لم يكن بوسعي التفكير خلالها غير أن زوجتي احتاجتني ولم أكن بجوارها. كنتُ خائفاً على الأطفال، لكني خفتُ أكثر عليها. لا أقدر على تحمل خسارة ريتا. ريتا نصفي الآخر، نسختي الأخرى. لا أستطيع العيش دونها.

عندما عدت إلى الميناء، تركتُ القارب دون أن أعني حتى بإرسائه في المرفأ.

في البيت وجدتُ ريتا ممددة في السرير، تنزف. فات الأوان، لقد أجهضت. كانت تلك ضربة موجعة. كنا سنحظى بطفلة ثالثة. أخذتُها إلى مستشفى في باليرمو. وبينما كانوا ينقلونها إلى غرفة العمليات، كل ما فكرتُ فيه: لا شيء يهم إلا سلامتها. بعدها، قررنا ألا ننجب مزيداً من الأطفال. لدينا بالفعل فتاتان رائعتان، لا حاجة لنا للمخاطرة.

على الرغم من ذلك، أخبرتني ريتا بعد فترة أنها في انتظار طفل جديد. لا حاجة للقول أني كنت طائراً من السعادة، الأطفال نعمة من السماء. لكن أمنيتي الوحيدة كانت أن تصير ريتا والطفل الذي تحمله بخير وبصحة. بعد ما مررنا به، لم يهتم أينا إن كان القادم ولداً أو بنتاً.

عندما عرفنا أن القادم ولدٌ، كانت فرحتنا بلا حدود. غراتسيا وروزانا كانتا فرحتين أيضاً، سيصير لهما أخيراً الأخ الصغير الذي طالما تمنتاه. عندما تركنا غرفة الأشعة فوق الصوتية تمنيت لو ركضت من فوري لأخبر أبي بأننا نترقب قدوم (جياكومو بارتولو)، الحفيد الذي انتظره كل تلك الأعوام. لكنني لم أقدر على فعل ذلك؛ كان قد توفّي منذ فترة وجيزة.

كان المخاض صعباً، ومرَّت ريتا بولادة قيصرية ثالثة. لعدة دقائق بعدها، مرّت علينا كعمر كامل، لم يبكِ جياكومو ولم يتنفس. أجرينا له تدليكاً جراحيّاً لتنشيط قلبه، فانطلق القلب الصغير في العمل. ظللنا أنا وريتا قلقين؛ اختناق الولادة قد يسبب أذى دائماً للمخ. راقبنا نموه بعناية في العام الأول، ثم أخذناه لرؤية طبيب أعصاب. لم يكن جياكومو سليماً معافى فقط، وإنما كبر ليصبح طفلاً استثنائياً سريع البديهة حاد الذكاء.

طريق جياكومو

عندما صار ابننا في عامه الثالث من المدرسة الابتدائية، كتب قصيدة ممتازة برأيي. وضعتُها في محفظتي، وأخذت أنقلها لكل محفظة جديدة أحملها عبر السنوات، حتى تجعَّدت الورقة. لكني أحفظها الآن في أمان. أخبرني أنها أغنية «جنّية النظارات»:

القطّ الفارسي تلمع عيناه ليلاً
وللصقر الجبلي نظرٌ من حديد
وللوشق عينان حادتان تغطيّان الأرض
والنار تلمع في عيني النسر حينما يطير
هناك عيونٌ زرقاء، وعيونٌ بنية
عيونٌ سعيدة، وعيونٌ غريبة
عيونٌ مسرورة للتلميذ الشاطر
عندما يعلم أن الإجازة قد اقتربت
كل عيون العالم جميلة
نعمة البصر هي معجزة حقيقية.

في الثالثة عشرة من عمره، كان على جياكومو أن ينتقل لباليرمو أيضاً ليلتحق بالمدرسة الثانوية. قررنا إلحاقه بمدرسة كاثوليكية معروفة. لكنهم رفضوه في البداية. كان من لامبيدوزا، وخبراتهم السابقة مع أبناء الجزيرة لم تكن طيبة. تمنيتُ لو كان بوسعي أن أقول لهؤلاء المعلمين أن يذهبوا إلى الجحيم، لكننا لم تكن لدينا خيارات افضل. حاولتُ إقناع المعلمين أن يعطوا ابننا فرصة، ووعدت أننا سنأخذه من المدرسة إن أساء التصرف.

تغيَّرَ رأيهم بشأن جياكومو في وقت قصير، في الحقيقة، طلب المدرسون بعد فترة مقابلتي وريتا. «ابنك يا سيدي يجتهد في دراسته أكثر من اللازم. هل تضعونه تحت أي نوع من الضغوط الزائدة؟». أخبرتهم ريتا أن لا علاقة لنا بكدح جياكومو في دراسته؛ تلك كانت طريقته في عمل الأشياء.

لن أنسى أبداً اليوم الذي افترقنا فيه. ذكّرني باليوم الذي تركني فيه أبي في تراباني لأعيش مع السيّدة المسنّة. مهاجع المدرسة كانت رمادية وعارية الجدران. كنتُ متردداً في تركه هناك، لكني لم أجعل جياكومو يرى ترددي. لم ينطق بكلمة اعتراض واحدة. تبادلنا كلمات الوداع بشجاعة.

تحدّثنا على الهاتف كل يوم، كان بوسعي إدراك أنه لم يكن سعيداً. بعد شهر، وجد الشجاعة ليقول «أبي، لا أريد السكن هنا أكثر من ذلك. أريد أن أسكن مع شقيقتي».

في هذا الوقت، كانت روزانا تدرس في جامعة باليرمو، وتستأجر

شقّة في المدينة. وافقت فوراً أن تستضيف جياكومو عندها، وصارت أمّاً ثانية له طوال الأعوام الأربعة التالية. التاريخ يعيد نفسه: كانت تقوم معه بالدور الذي قامت به أختي إنزا معي في سيراقوسة. اعتنت به بكل الطرق. حضرت اجتماعات أولياء الأمور في مدرسته بدلاً منا. الوقت الذي قضته معه ساعد في تزكية حماسه للدراسة، خاصة لدراسة الأدب والفنون.

عندما اقترب موعد نهاية دراسته في المدرسة، كان عليه أن يقرِّر مساره الجامعي. أنا وريتا قررنا منذ زمن أن نترك لأولادنا حريتهم في اختيار طريقهم دون محاولة التأثير عليهم. هكذا صارت غراتسيا معمارية وروزانا محامية. لكن في أعماقي، تمنيتُ لو يختار جياكومو مهنة والديه. وكانت هذه غلطة مني. رغم أني لم أحاول إرغامه على قبول ما تمنيته، إلا أنه شعر بشيء من الضغط عليه ليدرس الطبّ. اجتاز اختبارات القبول في جامعتين بنجاح باهر، ثم انتقل إلى روما حيث اجتاز أول عامين من دراسة الطب الأول على دفعته.

ثم زارنا ذات يوم زيارة مفاجأة: «بابا، ماما، أحتاج للحديث معكم». أدركنا فوراً موضوع حديثه. «حاولت إسعادكما بقدر استطاعتي، أنا أحب الطب، لكن شغفي الحقيقي يكمن في مكان آخر، وأنتم تعرفون ذلك». وهكذا قرر جياكومو تغيير طريقه تماماً، والتحق بدراسة الأدب في ميلان. كان هذا طريق جياكومو. لا نستطيع أن نمنعه عنه، ولم يكن علينا أن نحاول. وليأخذه طريقه إلى حيث يأخذه.

لا يحب جياكومو الصيد. لطالما حاولتُ اقناعه أن يخرج معي في القارب عندما يزورنا في الصيف. ما يجعلني أبتسم وأتذكر كيف كنتُ مضطراً، بحكم الحاجة، للخروج مع أبي للصيد كلّما عدت إلى لامبيدوزا. أحياناً يدلّلني جياكومو ويخرج معي، تكون هذه أفضل الأوقات التي نقضيها معاً، أنا وهو فقط. أستطيع أن أقضي ما تبقى لي من عمر منصتاً إليه، لديه قدرة رائعة على تحويل أبسط المواقف إلى حكايات مثيرة للاهتمام.

تختلف شخصيتي عن شخصية ابني تمام الاختلاف. عادة ما يستنكر كوني مندفعاً أكثر من اللازم وغير عقلاني، لا أفكر كفاية في عواقب أفعالي. أحياناً، عندما نتناقش في أمر ما، يبدو وكأننا تبادلنا الأدوار، هو الأب وأنا الابن. يعلم جياكومو جيداً أني لن أتغير، لا يمكنني فعل ما أفعله بطريقة أخرى، يعلم أني غير قادر على التعامل مع المسائل الهامة بطريقة دبلوماسية، خاصة عندما تتعلق تلك المسائل بحياة ناس ومصائرهم.

تدريجياً وببعض الصعوبة، بدأ في تقبُّل هذا، وأنا أيضاً بدأت أتقبَّل نقده لي. تجعلني آراؤه أهدأ وأفكر مرة أخرى، على الرغم من أحداث حياتي الصاخبة.

أذرع العمالقة

في قلب البحر الواسع المفتوح، خيط صنارتي في الماء منتظرٌ في صبر. تلك هي الطريقة الوحيدة التي أُعيد بها التواصل مع روحي. لكن في كثير من الأحيان، يخرج من قلب هذا الصمت اللانهائي، من نقطة ما غير معلومة في الذاكرة، حيث تتشابك الخبرات السيئة وتتقاطع مُشكِّلةً مزيجاً مريعاً من العنف والوحشية يشبه لوحة بيكاسو (غورنيكا)، ذكرى مريعة أو أكثر مما شهدت من قبل.

ذات صباح في لاميدوزا، هبت رياح جنوبية غربية عنيفة. اقتربت بارجة من الجزيرة لكنها، مثلما يحدث كثيراً، دخلت المدخل الضيّق للميناء وتعثّرت بالصخور القريبة من (كالا جاليرا) التي تقود إلى جزيرة الأرانب.

كانت الأمواج أشبه بأذرع العمالقة، تحمل السفينة وتقذفها على المياه، تمزِّق ألواحها واحداً تلو الآخر وتحطِّمها. خلال ساعة كانت البارجة مُدمَّرةً بالكامل.

لم نلمح على سطحها أي راكب، وحتى لو كنا فعلنا، كان من

المستحيل إنقاذهم. عجز قاربنا البخاري عن الوصول إلى الحطام. وكأنها كانت سفينة شبح اختفى من أمام أعيننا فجأة مثلما ظهر فجأة. صارت السفينة فتاتاً، ابتلعها البحر العاصف.

انقضت أيام، والطقس لا يزال عاصفاً. قمنا بدوريات حول الجزيرة باحثين عن ناجين ربما تمكنّوا من السباحة إلى الشاطئ، لكن البحث لم يأتِ بنتيجة. بعد أسبوع تقريباً، هدأ البحر. وخرجت القوارب الآلية مرة أخرى عليها غطاسون من الكارابنيري[1]. بحثوا في كل ركنٍ من الحطام الغارق ولم يجدوا أحداً. لكن الغطاسين أصروا على المتابعة، وسَّعوا نطاق بحثهم، حتى تمكنوا مرة أخرى من إيجاد عدد من الجثث، وأحضروها إلى المرفأ.

شرعنا في عمليات التشريح. كانت الجثث في حالة سيئة؛ أكلت الأسماك أجزاءً منهم، وامتلأت بالحشرات والطفيليات وكائنات نجم البحر. حوَّلتهم الأيام التي قضوها في نعشهم المائي إلى قطع من اللحم المتعفن. ساعدني شرطيان من حرس الحدود، لكن حتى الرجال المتمرسين مثلهم لم يكن بوسعهم تحمُّل مثل هذه المهام. أنت لا ترغبُ في النظر إليهم لثانية أطول مما أنت مضطرٌّ لتفعل. رائحة التحلُّل النتنة تحتلُّ كل ركن في مخّك، تسبب لك الدوار، وتتلكأ في الخروج لساعات طويلة.

بعد فحص أول خمس جثث، وتنظيفها من الطفيليات وإعادة بعض من الكرامة الضائعة لها، عدتُ إلى البيت. منظرها احتل كل

(١) قوات الدرك الوطني الإيطالية. [المترجم]

ركن في عقلي. كنت أشعر بالغثيان ولا أكاد أتوقف عن التهوع. أما الرائحة النتنة فشعرت أنها التصقت بي. كنتُ في حال سيئة.

بعد استراحة قصيرة عدتُ للمرفأ وحيداً. جلب الغطاسون مزيداً من الجثث، لم أستطع المضيَّ قدماً. سألت (سيزار)، وهو عامل شاب في مركز الاستقبال، أن يساعدني. فعل عن طيب خاطر لفترة، لكن بعد التشريح السابع معي، لم يستطع التعامل مع الأمر أكثر من ذلك. قال: «دكتور، أسدِ لي خدمةً من فضلك، لا تطلب مني فعل ذلك مرة أخرى. لم أعد أستطيع النوم، تغمرني مشاعر سيئة، وأشعر بالمرض...». وهكذا، رغم أنه لم يحب أن يتركني، إلا أنه اضطر للتوقف.

لكن قبل أن يذهب، سألته إن كان يستطيع إغلاق التوابيت. إغلاق التوابيت أيضاً جزءٌ من وظيفتي، وهو ليس أمراً سهلاً. إنه شيء في غاية الأهمية، ويجب أن يتم باحترام وتوقير للمتوفين؛ فهم أشقاء للبعض وأبناء لآخرين، يستحقون دفناً لائقاً.

إصرار الغطاسين على البحث واستعادة كل جثة مهما كان الثمن، هو علامةٌ أخرى على الاحترام البالغ الذي يكنّونه للضحايا، على رغبتهم في حفظ كرامة هؤلاء الذين حاربوا حتى النفس الأخير للحصول على حياة يستحقونها.

تابعتُ عملي، وفي اليوم قبل الأخير عاد سيزار. رأيتُه قادماً من مسافةٍ بعيدة. قال: «دكتور، لقد أعدتُ التفكير. أشعر بالسوء تجاه نفسي. لا يجب أن تُترك لفعل كل ذلك وحدك. أرغب في المساعدة.

لا تقلق، لقد استجمعتُ شجاعتي لفعلها». جاء معه بمقصّ ضخم قادر على قطع الخشب. سيكون هذا مفيداً، خاصة وأننا عانينا من قبل في إزالة ملابس الضحايا. علينا دوماً خلع ملابس المتوفين وتنظيفهم، ووضعهم في التوابيت بأفضل شكل ممكن.

قلتُ: «إن معدنك أصلب مما تخيلت يا سيزار». كان متواضعاً، رسم على محياه تعبيراً ربما قصد منه أن يكون ابتسامة، لكن لم يكن هناك أثر للمرح في عينيه. لقد أثّرت فيه التجربة وغيّرته إلى الأبد، رغم أن تلك لم تكن إلا المرّة الأولى له.

عندما انتهينا، قمنا بعدِّ الحصيلة: تسعة عشر حياةً مضت بلا رجعة.



المشكلة ليست في الربّ، المشكلة في الإنسان

أنا شخصٌ مؤمن، أؤمن أن ربّي لا يختلف عن ربّ الآخرين. عندما أشعر أني مستنفد، ألجأ إلى (عذراء بورتو سالفو)، قديسة لامبيدوزا وراعيتها. أسأل أمّ كل الأمهات أن تهبني القدرة على مساعدة وإنقاذ الأطفال الذين يصلون إلى لامبيدوزا عبر البحر. أسألها أن تبقيهم أحياء، أن تعفيني من رؤية مزيد من الوفيات. أدعو ألّا أضطر لحمل طفلٍ بلا حياة مرة أخرى بين يديّ.

منذ عدة سنوات، بلغنا نبأ غير سار؛ كاهن أبرشيتنا (دون ستيفانو ناستازي) سيُنقل إلى مدينة (شاكا) في صقلية.

دون ستيفانو هو من أحضر (البابا فرانسيس) إلى جزيرتنا. وكان قد لعب دوراً محورياً في مواجهة الفترة الصعبة غير المتوقعة التي كانت تمر بها لامبيدوزا. كتب على فيسبوك ذات مرة «تستعد جزيرتنا لخوض بحارٍ جديدة ورحلة جديدة. والشيء المهم يبقى مثلما كان دائماً، أن نترابط معاً كجسد واحد، ونَقودها كطاقمٍ مثاليّ». لاحقاً، بعد مغادرته لامبيدوزا، كتب «ضعف المهاجرين

وأسئلتهم ومعاناتهم، جعلت حياتنا أكثر ثراءً، وساعدتنا على فهم أنفسنا بشكل أفضل، على فهم ضعفنا الخاص وتناقضاتنا».

بدلاً من دون ستيفانو جاء (دون ميمو زامبيتو). عندما تقابلنا أول مرة، كدنا نتشاجر بالأيدي. بقدر ما يبدو هذا عسيراً على التصديق، ولكنه ما قد حدث. كانت الأبرشية قد بدأت مؤخراً في استقبال اللاجئين الأطفال في بيت إغاثة يُدعى (بيت الأخوّة Casa della fraternità)، تديره منظمة (كاريتاس) المسيحية الخيرية. ثم حدثت هناك عدة حوادث مؤسفة، بعض الأطفال تصرفوا بشكلٍ مؤذٍ، كسروا الأبواب وحرقوا مراتب الأسرّة، بل وألقوا الحصى تجاه رجال الشرطة.

في هذه الأثناء، وصل لامبيدوزا عشرون طفلاً مصابون بالجرب في قارب واحد. ولم يكن هناك مكانٌ لهم في مركز الاستقبال، فقرَّرنا وضعهم في بيت الأخوة. ذهب مارشال من الكارابنيري لإبلاغ دون ميمو، الذي صاح غاضباً: «لا يمكنكم أن تقرروا إحضارهم هنا! أعطوني وقتاً على الأقل أرتِّب فيه المكان». حينها كنت قد أخذتُ الأولاد بالفعل إلى دورات مياه بيت الأخوّة، وبدأتُ في إجراءات علاج الجرب. عندما وجدني دون ميمو هناك، صرخ في وجهي حتى لم يعد بوسعي تحمُّله، فثار غضبي وأهنته، وتصاعد الشجار بيننا حتى كاد أن يصل للالتحام الجسدي.

كل منا كان مضغوطاً ومرتبكاً، غير قادر على التحكّم بأعصابه.

بعدما انتهيت من علاج الأطفال، ذهبت لأعتذر من دون ميمو.

قال هو أيضاً إنه آسف على ما حدث. منذ ذلك الوقت، صرنا أصدقاء بسرعة. عندما تسنح لي الظروف وأحضر قدّاس يوم الأحد، أتلكّأ لتبادل الحديث معه، أخبره بما نواجه من مشاكل. عادةً ما يجد طريقة يطمئنني بها ويبث فيَّ الشجاعة للصمود. يقول: «بيترو، بيترو... هل نملك ترف الاختيار؟ أيمكننا تجاهل ما يحدث؟».

كثيراً ما يسألني البعض إن كان عملي مع اللاجئين قد زعزع إيماني بالرّب الذي يسمح بحدوث كل هذه المعاناة. الرّب؟ ليس للرّب علاقة بما يحدث. إن كان هناك من يُلام فهُم البشر وليس الرب. البشر هم الجشعون الطماعون، الذين يضعون ثقتهم فقط في المال والسلطة. أنا لا أتحدث عن المتاجرين بالبشر، وإنما عن أولئك الذين يسمحون بحدوث ذلك. أولئك الذين يرغبون في أن يعيش بقية العالم في فقرٍ مدقع، الذين يغذّون الصراعات ويدعمونها ويموِّلونها. المشكلة في البشر وليست في الرّب.

إلى أي مدى يذهبون

كل يوم، من أجل دفع الثمن الباهظ لرحلة الهروب من بلده، يبيع مهاجرٌ كليته.

في البداية، لم أرغب في تصديق حكايات بيع الكلى، اعتبرتُها نوعاً من الصحافة الصفراء. لكن التقارير صحيحة، عددٌ متزايد من المهاجرين الذين أُعالجهم لديهم ندوبٌ تثبت تلك الحقيقة. لا يتطوَّعون من تلقاء أنفسهم ويتحدثون عن الأمر، لأنهم يخافون من فضح شبكة إجرامية كبرى تنمو يوماً بعد يوم، لم نرَ منها سوى أقل القليل.

قرأتُ عن الموضوع أكثر لأني بحاجة لفهم ما يحدث. الحقيقة مرعبة، تبدأ صناعة تهريب الأعضاء من إفريقيا، وتمتد لتشمل عشرات الأماكن حول العالم. طبقاً لـ(منظمة الصحة العالمية)، فإن ١٠٪ تقريباً من جراحات نقل الكلى في الغرب تُجرى بأعضاء مصدرها غير قانوني. رقم مذهل. يدفع المشترون أرقاماً عالية، ويدفعون أكثر للأعضاء المأخوذة من ضحايا صغار السن.

صُعقتُ عندما أدركت أن هناك شبكة كاملة من الأطباء والتقنيين والمحللين والأخصائيين يعملون في هذه التجارة. إخراج كِلية وحفظُها في ظروف ملائمة ليمكن إعادة زراعتها لاحقاً ليس لعبة أطفال.

يدفع المشترون ما يصل إلى مئتي ألف دولار لضمان أن تمضي عملية الزرع بسلاسة، وأن الكلية ستعمل دون مشاكل. يعني هذا أن هناك جرّاحين ممتازين، زملاء لي، أقسموا نفس القسم[1] الذي أقسمتهُ، يعملون في هذا المجال النتن. في الحقيقة، إن بحثتَ أكثر، ستجد حكايات كثيرة عن أطفال اُختُطِفوا لتباع أعضاؤهم لمن يدفع أكثر. المرعب، أن في هذه الحالات، الكلية ليست إلا البداية. يعامل المهربون ضحاياهم الصغار كماكينات تنتج قطع غيار بشرية. لا يسعني إلا التساؤل، كيف يعيش أحدهم مع فكرة أن جسده يحوي كلية أو كبداً أُخِذ عنوة من ضحية بلا حول ولا قوة؟

خلف كل هذا، كالعادة، سيلٌ منهمر من الأموال المتدفقة من ما يُسمى بالعالم «المتقدم». يمتص الشياطين الأثرياء دماء سكان العالم كله، لا يتركون خلفهم إلا الخاضعين المقهورين.

تطورت تجارة البشر إلى تجارة الأعضاء. الطريقة التي نحوِّل بها المهاجرين إلى أرقام وعناوين، تنزع عنهم الصفة البشرية، ما يجعل من السهل استهلاكهم حتى الإبادة، دون أن يبقى لهم أثر.

---

(١) قسم أبقراط هو تعهد رسمي بالحفاظ على القيم الأخلاقية للطب. بدأ في اليونان القديمة، وما زال الأطباء يقسمونه، بصيغة أو بأخرى، حتى الآن.

لحسن الحظ، ينتشر الوعي بهذه الجرائم، ويضغط الناشطون على الحكومات لوضع حدّ لها. مرةً أخرى يصير التعاون الدولي أمراً ضرورياً إن أردنا القضاء على هذا النوع من التجارة تماماً.

أن يبيع المرء أعضاءه هو تصرف متطرف يائس. كثيرٌ من المهاجرين مستعدّون لفعل أشياء أخرى أقل تطرفاً، رغم أنها ليست أقل إزعاجاً. عندما جاء عُمر إلى لامبيدوزا أول مرة، جاء ألاف التونسيين غيره، هاربين من الربيع العربي والاضطراب الذي شاع في بلادهم. حسبوا أنهم سيكونون في إيطاليا خلال ساعات، ومن هناك سيكون باستطاعتهم الخروج لباقي دول أوروبا. بدلاً من ذلك، أُعيد أكثرهم إلى تونس، حيث سينتهي الحال بأغلبهم إلى السجن. عندما أدرك المهاجرون ذلك، حاول كثير منهم أن يتسبب في ما يضعه في المستشفى في صقلية، عبر ابتلاعه أي شيء يجده أمامه: مفاتيح من مركز الاستقبال، قطع صدئة من الحديد، وحتى شفرات الحلاقة. الشفرات بالذات كانت الأكثر خطورة، إذ يمكن أن تتسبب بتمزق حاد في الأمعاء. في اليوم العادي، كان يصل لغرفة الطوارئ من مركز الاستقبال ثلاثة نزلاء، نتيجة لبلعهم أجسام غريبة. كان علينا أن ننقلهم لباليرمو، حيث تُجرى عليهم الجراحة لاستخراج ما ابتلعوه من أشياء خطيرة.

رأى المهاجرون في المستشفى فرصتهم المثلى للهرب. ما أن يتعافوا، حتى يحاولوا بقدر استطاعتهم الهرب. يفضلون البقاء في إيطاليا بشكل غير قانوني، على إرسالهم للسجن في بلادهم.

ظلت الطائرات المروحية مشغولة في حمل طالبي اللجوء واحداً بعد الآخر لمستشفيات صقلية. لكن بعدها، وصلت للعيادة أخبار مطمئنة. أظهرت أشعة إكس أن المرضى قبل بلعهم لشفرات الحلاقة، كانوا يغلفونها في أوراق الفويل التي تُبطن عُلب السجائر. ما قد يؤدي لجعل مقامرتهم بحياتهم أقل خطراً، وربما تخرج الأجسام الغريبة من أجسادهم بشكل طبيعي.

عندما وجدنا أن عدداً كبيراً جداً من المهاجرين يقومون بهذه المحاولات الخطرة لتفادي الترحيل، ناقشنا الأمر مع أفراد الشرطة في المركز. فنزعوا عن الغرف مقابض الأبواب وكل الأجسام الخطيرة. قلنا للمهاجرين أنهم سيعالجون في العيادة في لامبيدوزا بعد ذلك إن تابعوا استخدام هذه المناورة المؤذية. بعد بضعة أيام، عاد الوضع إلى الطبيعي.

ما فعلناه كان ردّ الفعل المنطقي الطبيعي على ما حدث. لكننا عرفنا أننا نحكم عليهم بالترحيل. وهو ما أحزننا للغاية.

عندما يفهم عمدةٌ ما لا يفهمه زعماء العالم

«دكتور، على المركب امرأة حامل جاءها المخاض».

عندما تلقيتُ تلك المكالمة، هرعتُ من فوري إلى المرفأ. استقبلنا هذه المرأة في العيادة، أدركتُ فوراً أنها يجب ان تُنقل لباليرمو بالطائرة المروحية. لم يكن عندنا ما يمكّننا من التعامل مع الصعوبات المتوقعة لتلك الولادة بكفاءة في لامبيدوزا. كانت المرأة تسافر برفقة زوجها وسبعة من أبنائها. شرحنا لهم أنهم لن يمكنهم الوصول لباليرمو معاً في نفس الوقت، وأن من يبقى منهم سيذهب في اليوم التالي، لكنها الآن يجب أن تغادر فوراً. وإلا قد تخسر وليدها وتندم على ذلك بقية عمرها. لكن المرأة لم تلقَ بالاً لكل هذا، لم تكن هناك وسيلةٌ لفصلها عن أبنائها بعد كل ما مرّوا به. لم يستطع حتى زوجها إقناعها بغير ذلك. إصرارها كان عظيماً. ولم يعلم أيٌّ منا ما يجب علينا أن نفعل، الوقت كان ينفد منّا. مع كل دقيقةٍ تمرُّ كنا نخاطر بحياتها.

عصفنا أذهاننا بحثاً عن حلّ، كانوا أكثر من أن تتحمَّلهم

المروحية. في خيالي كنتُ أرى ساعةً رملية تتساقط حبّات الرمل منها تدريجياً. وعندما كدنا نفقد الأمل، طَرَحَ الحلُّ نفسَه: وزارة الداخلية قدَّمت طائرةً حربية لنقل الأسرة كلِّها إلى باليرمو. فازت المرأة وحقَّق عنادها هدفه، ولم يستطع أحدٌ الفصل بينها وبين أسرتها. زال عنها كل تحفّظ، ووضعت ذراعيها حولي في حضنٍ مليءٍ بالامتنان.

بعد هذه الحادثة بوقت قليل، تلقيتُ مكالمة أخرى، هذه المرة من عمدة (جيراتشي سيكولو)، قرية صغيرة تقع عند جبال (مادوني). صدف أن اسمه كان نفس اسم عائلتي «أنا بارتولو فينا، أتمنى ألّا أكون أحدِّثك في وقت غير مناسب، قالوا لي أن بوسعك مساعدتي». كانت هذه حكاية ذات نهاية سعيدة غير متوقعة، أدّت لصداقة دامت حتى اليوم.

ركب أربعة وعشرون سوريّاً، رجال ونساء وأطفال من أسرة واحدة كبيرة، قارباً من ليبيا. وعندما وصلوا البحر المفتوح، حيث يُفترض أن يقسّمهم المهرِّبون على قوارب أصغر، اكتشف المهربون أنه لا يوجد مكان يكفيهم جميعاً. أُعيد بعضهم إلى ليبيا، بينهم طفلة أُرغِمت على الانفصال عن والديها. لحسن الحظ أعادوا خالها معها.

اعترضت قاربَ الوالدين سفينةٌ بحرية، وأُخذوا إلى بلدة (بوتسالو) في المقاطعة الصقلية (راغوزا). وُضعوا هناك في مركز استقبال جيراتشي سيكولو، حيث استطاعوا بعد عدة أيام أن يخبروا عمدة البلدة عن ابنتهم، وعن متاعهم الذي سُلب منهم بالكامل على متن السفينة البحرية. الجريمة التي وصلت للمحكمة، في

قضية تسببت في إثارة سخط كثير من أفراد الجيش الذين يعملون بجدّ كل يوم لإنقاذ الأروح في البحر.

لحسن الحظ، استطاع خال الطفلة التواصل مع والديها عبر الهاتف المحمول، وأخبرهم أنه وصل إلى لامبيدوزا. بعدما عرف هذا، عزم بارتولو فيينا على البحث عن شخص على الجزيرة مستعدٍّ للمساعدة، فأعطوه رقمي. خرجتُ فوراً إلى مركز الاستقبال وشرعت في البحث، لم تكن مهمَّة هينة؛ مركز الاستقبال كان يستضيف مئات المهاجرين في الوقت ذاته، أقام السوريون في خيام كبيرة تحت الأشجار، لأنه لم يعُد هناك متَّسعٌ داخل المبنى. بمساعدة المترجم، شرحتُ لماذا كنتُ هناك، ووصفت الطفلةَ للمهاجرين. وجدناها، واستطعنا أن نجمعها بأسرتها في جيراتشي سيكولو.

أخبرني بارتولو فيينا بعد شهور لاحقة، أن الأسرة استقرت في هولندا، وإن كانوا يتمنّون انتهاء الصراع في سوريا ليستطيعوا العودة إلى بيتهم. كل اللاجئين، أطباء ومعماريين ومهندسين ومعلمين وعمالاً وطلبة وآلاف الأسر، يتمنّون الأمر ذاته.

بارتولو فيينا، عمدة بلدة صغيرة مثل جيراتشي سيكولو، فهم خطورة الأزمة وجديّتها، وفعل ما بوسعه لمساعدة أسرة في ساعة حاجتها. لم يكن فقط قادراً على المساعدة، ولكنه لا يزال على تواصل معهم ويسأل عن أحوالهم باستمرار. في الناحية الأخرى، لا يبدو أن من نطلق عليهم زعماء سياسيين يفهمون الصعوبات التي يواجهها هؤلاء الناس.

كلما رأيتُ صوراً لمهاجرين يُجبَرون على الترحيل بالألاف، على العودة إلى الجحيم الذي فروا منه، ينتابني الغضب. أي نوعٍ من الناس لديه الأعصاب القادرة على تقرير مصير كل هؤلاء البشر بجرّة قلمٍ على قطعة ورق، ثم يبتسم لحامل الكاميرا ويصلح من وقفته ليبدو أفضل في الصورة؟ ماذا حدث لنا؟ كيف نسينا إلى هذه الدرجة الأشخاص الذين كنّا من قبل؟

قط بسبعة أرواح

ألم حادٌّ يجول في رأسي. أجلس على مكتبي في العيادة، أتحدث في الهاتف منفعلاً إلى حدّ كبير، أصرخ بخصوص شيء ما وأخبط المكتب الذي غطّته أكوام الأوراق التي لم أرتّبها بعد بيدي. تسمعني زميلتي (أليساندرا) وتهرع إلى الغرفة. «بيترو، عمَّ تتحدث؟ أيّاً كان من تحدّثه فقد أنهى الاتصال». تبدو مبهوتة، لا أعرف السبب. تأخذ الهاتف من يدي وتضعه بعيداً منهية المكالمة. أرتجف، أحاول أن أقول لها: «لمَ تأخذين الهاتف مني؟»، لكن كل ما يخرج مني أصوات غير مفهومة.

لا أستطيع تخيُّل لماذا قد تقطع مكالمتي بهذه الطريقة؟ أثق في أليساندرا أكثر من أي من زملائي. أحاول أن أكلمها لكن كل ما أقوله يخرج من فمي بإيطالية متعثرة، أما وجهي فقد انقبض ليرسم تكشيرة غريبة. تبدو أليساندرا قلقة أكثر فأكثر. تسرع خارجة من الغرفة لإحضار ممرضة، وقبل أن أدرك ما يحدث أجد نفسي في غرفة الطوارئ. يغرزون فيّ محقن وريدي. ماذا يحدث بحق السماء؟ ماذا

يفعلون بي؟ أشعر وكأني أحلم، وكأن ما يجري ليس إلا واحداً من كوابيسي العديدة.

لكن هذا ليس حلماً. أفهم ذلك عندما أجد زميلي الذي طالما تشاجرت معه بجوار سريري يقول: «لا تقلق يا بيترو، قط بسبعة أرواح». ما يعنيه بقوله كان (إن لم أستطع أنا التخلص منك، لا شيء سيفعل).

وضعوني على نقّالة وحملوني إلى سيارة الإسعاف. تمنيتُ لو استطيع إخراج الكلمات «إلى أين تذهبون؟ ماذا يحدث؟»، لكن الأفكار لا تتجاوز مخي، جسدي لا يطيعني.

أشعر بالخوف مرة أخرى، أغرق مرة أخرى، لكن هذه المرة ليس في البحر. ألهث، ولا أعرف السبب. للمرة الثانية في حياتي أفكر: أنا أموت، انتهى كل شيء.

أستطيع رؤية المروحية تتجهز للإقلاع. يحملني الممرضون على ناقلة من سيارة الإسعاف. لا يوجد وقت لإضاعته. صرنا على متن المروحية التي أقلعت بعدها فوراً.

لن أنسى أبداً تلك الرحلة والوجوه القلقة التي تناثرت حولي. السماء كانت صافية، بدت السحب القليلة حولنا مثل قطع مارينغ عملاقة. غاص عقلي وسط فوضى من الصور المتشابكة العشوائية. لقد عشتُ حياة طويلة مزدحمة صاخبة، بلا ندم.

استغرقت الرحلة أكثر من ساعة، بدت بالنسبة لي أبدية. شعرتُ

وكأني أفقد الإحساس تدريجياً من نصف جسدي، أحد جانبي وجهي كان يتشنج، وغزا التنميل ذراعيّ وقدميّ.

فكّرتُ بِريتا، بالتضحيات التي أكرهتُها عليها عبر السنوات. فكّرتُ بأبنائي. لكن الأهم، فكّرت بمرضاي، وإن كنت لا أدري لمَ فكّرتُ بهم. فكّرت بكل الرجال والنساء والأطفال الذين خاطروا بحياتهم لبلوغ شواطئنا وطلب مساعدتنا. فكّرتُ بالساعات التي قضيتُها في المرفأ، بالأيام التي كنتُ أقضيها هناك برفقة زملائي لثلاثة أيام متتالية، نتناوب الأدوار في أخذ استراحات قصيرة على نقّالات الإسعاف، محاولين اختلاس نصف ساعة من النوم قبل أن نقفز على أقدامنا مرة أخرى. عرفتُ أن هذا كان هو السبب الذي عشتُ لأجله، رغم أني احتجت للمرور بأسوأ الظروف لأدرك هذا.

عندما وصلت للمستشفى في باليرمو، استقبلني هناك صديقي وزميلي (ماريو)؛ رفيقي في معارك عديدة. كان أيضاً يحمل نظرة مرتاعة على وجهه. أخذوني لغرفة الأشعة المقطعية، ثم أجروا عليّ تصويراً بالرنين المغناطيسي. جاءت النتائج بسرعة: سكتة دماغية، خفيفة لحسن الحظ، أو نوبة إقفارية عابرة (TIA) باللغة الطبية.

وضعوني في سرير، تلقيت عناية فائقة من الجميع. بعد عشرة أيام طلبتُ الخروج، واعترض كل من حولي على ذلك، لكنه كان قراري الشخصي. قال ماريو: «لم يحن أوان خروجك بعد يا بيترو»، يبدو أنه ترك جانبي واتخذ جانب الآخرين «تحتاج لبضعة أيام من

الراحة، جسدك تعرَّض لضغطٍ كبير. إن أُصبتَ بجلطة أخرى قد تؤدي إلى الشلل، فكِّر في الأمر أرجوك». ومع ذلك أصررتُ على الخروج. لم أستطع -ولن أستطيع- البقاء بعيداً. عدت إلى لامبيدوزا وإلى المرفأ، والمثل القديم لا يفتأ يرن في أذني: قط بسبعة أرواح.

كان ماريو محقّاً بشأن أمر واحد: الضغط هو ما سبب لي السكتة. في الحقيقة، سبَّبتها حادثة وحيدة عبثية سخيفة غير متوقعة، لا علاقة لها بمرضاي بأي شكل.

كان ذلك في الثاني من سبتمبر عام ٢٠١٣، رنَّ هاتفي وقال المتحدث «دكتور بارتولو، تعال إلى مبنى البلدية فوراً». المتحدث كان مارشال من الكارابنييري. هناك وجدتُ الفريق المساعد للعمدة (جيسي نيكوليني) في حالة هلع، وعلى المائدة يقبع مظروف مفتوح. كان مُرسلاً من ألمانيا، وبداخله مسحوق أبيض وورقة كُتب عليها «خطر: جمرة خبيثة».

فتح موظفو البلدية المظروف ولمسوه، بل أنهم حتى استنشقوا المسحوق. اتصلنا بقوات المطافئ فوراً، إذ إنهم كانوا مؤهلين للتعامل مع هذه الحالات. وصلوا في بزات خاصة، وأخبرتُهم بما عليهم أن يفعلوه مع المظروف.

الجمرة الخبيثة! لم يتعامل معها أيٌّ منّا من قبل، حتى إن كنّا نعرف أصول التعامل معها، لن يمكنّنا هذا من التعامل بكفاءة كافية مع شيء لم تتقاطع طرقنا معه من قبل. الموقف كان سوريالياً.

كان يجب أن يكون في لامبيدوزا وحدة تطهير متنقلة جاهزة للعمل في لامبيدوزا.

أحكم رجال المطافئ تعقيم المظروف وأعطوه لي، رغم أني لا شأن لي بالحادثة. غلَّفته في عدة طبقات، وتواصلت مع السطات المحلية والإدارة البيطرية، لم يعرف أيٌّ منهم ما علينا فعله أيضاً.

قضينا ذلك اليوم في المناقشة والجدل، ثم جاءت مروحية تابعة لقوات الحرس المالي، وأخذت المظروف إلى باليرمو. بعد دقائق قليلة هاتفني قائد المطافئ في جرجنت وطلب مني تجهيز البزات التي استُخدمت لنقل المغلف لتعقيمها مجدداً. أثار هذا جنوني، هذه ليست وظيفة العيادة، أخبرتهم بهذا بكلمات واضحة. وتلك كانت المكالمة التليفونية التي قاطعتها أليساندرا يوم سكتتي الدماغية.

عندما ذاع خبر احتجازي في المستشفى انتشر الفزع بين الجميع، لأنهم حسبوا أني أصبت بالجمرة الخبيثة. لكن نتائج التحاليل الموثوق فيها جاءت بسرعة لتؤكد نظافتي التامة من الجمرة الخبيثة، ونظافة المادة في المظروف منها أيضاً.

العيادة هي بيتي منذ ١٩٩١. كان تعييني فيها لأول مرة مع خمسة أطباء آخرين، اثنان مُنهم أُرسلا إلى نموشة، لكن لا أحد يرغب في الذهاب إلى هناك. خاصة وأنك في شتاء نموشة، قد تمضي أياماً لا يستطيع فيها قاربُ الرسوِّ في المرفأ، فيمكن أن يعلق الواحد فيها لفترات تطول بلا وسيلة للخروج. كثيراً ما كنت أذهب إلى نموشة بدلاً من زملائي، ليتمكنوا من الذهاب إلى بيوتهم في صقلية؛ لم

يكونوا من لامبيدوزا أصلاً، ما يعني أنهم لم يكن بوسعهم رؤية أبنائهم وزوجاتهم إلا يومين في الأسبوع.

طلب الأطباء تحويلهم من هنا واحداً تلو الآخر، حتى لم يبق سوى أنا وزميل آخر. بعد بضع سنوات، صرتُ مديراً للعيادة، طلب حينها الطبيب الآخر الإذن بالرحيل مثل من سبقوه. لم أقدر على الرفض، كنت أعرف أن العيش بعيداً عن الأسرة تضحية لا يمكن طلبها من المرء طوال الوقت. وافقتُ على رحيله، لكن منذ ذلك الحين كلما طلبتُ مزيداً من الدعم، كانوا يستخدمون قراري السابق ضدي.

صارت أليساندرا مساعدتي الأهم. كانت متخصصة في الإسعافات الأولية، بدلاً من ذلك أصبحت معاونتي الشخصية، ذراعي الأيمن، ولسوء الحظ، الشخص الذي أفرّغ فيه شحنتي عندما يتملَّكُني الضغط والتعب والهمّ.

ترك كل من هؤلاء الناس بصمَتَهُم على المكان، كانوا موهوبين محترفين، ومن الطبيعي أن يقرِّروا في مرحلة ما أن يعودوا لديارهم الأصلية. لكن في المقابل، قرَّرنا أنا وأليساندرا البقاء في هذه البقعة الضيقة من البلاد، حيث حالات الطوارئ والروتين أمران متلازمان.

عندما ارتفع عدد المحتاجين للعناية إلى عنان السماء مع اندلاع أزمة اللاجئين، دبّرنا أمر مزيد من التعزيزات. أنشأنا حجرة طوارئ، أثبتت فعاليتها مثلما تنبّأنا. استقدمنا مزيداً من الأطباء، لمساعدة

أهل لامبيدوزا ولمساندتنا مع أزمات اللاجئين. من بينهم طبيب نساء وتوليد بعقد مؤقت يصاحبني دوماً في المرفأ. وطبيب أطفال للمهاجرين الصغار، لكن بسرعة أدركنا أن من المستحيل الاكتفاء بطبيب أطفالٍ واحد فقط، فيقوم بهذا الدور الآن عدة ممارسين. لدينا الآن طبيب إضافي في غرفة الطوارئ ومسعفون متخصصون، أحدهم يأتي معي للمرفأ أيضاً. وطبيب قلب وطبيب تخدير تحت الطلب. باختصار، تمكنّا من بناء عيادة فيها اثنان وعشرون قسماً مختصاً، تخدم السكان الأصليين والقادمين الجدد في الوقت ذاته.

من بين كل المفاجآت التي قابلتُها في عملي، أتذكَّر واحدة منها باعتزاز شديد.

نظراً لأني مصاب بطول النظر، أرتدي نظّارات قراءة ذات إطار خاص قابل للفك والتركيب. في الفترة التي كان الطلب فيها شديداً على ظهوري في لقاءات تليفزيونية تغطي الأزمة، ظهرتُ في عدة لقاءات عُرضت على التليفزيون بشكل متتابع في فترة قصيرة. بعدها بأيام، جاءتني رسالة من الشركة المصنعة لنظّاراتي. أرادوا شكري على الدعاية التي قدَّمتُها لهم دون قصد، وسألوا إن كانت هناك طريقة يشكروني بها، فانتهزتُ الفرصة.

كثيراً ما يصل اللاجئون إلى لامبيدوزا بمشاكل في الرؤية، ننصحهم عادة بعدسات تصحيح رؤية نعلم جيداً أنهم لن يشتروها أبداً. هذا ما كنت أفكر فيه عندما طلبتُ من شركة النظارات أن يرسلوا لي عدداً من النظارات والعدسات مختلفة الدرجات. لاحقاً

في الأسبوع ذاته، وصلتُ العيادة لأجد صندوقاً عملاقاً يمتلئ عن آخره بالنظارات. دعايتي غير المقصودة كسبت ربحاً ثميناً للعيادة.

يزداد عبء العمل على كواهلنا طوال الوقت، ولا يقتصر فقط على العمل مع اللاجئين الذين بلغوا الشواطئ. عندما تنتشل الوكالة الأوروبية لمراقبة وحماية الحدود الخارجية (فرونتيكس) مهاجرين في حالة حرجة، يرسلونهم إلى هنا بالقوارب الآلية أو المروحيات. ببساطة، لا يوجد وقت لنقلهم إلى أي مكان آخر.

نعمل بأقصى جهدنا لندير العيادة على أكمل وجه، فرغم أن العمل مع المهاجرين يستهلك كثيراً من الوقت والطاقة، نجاهد أيضاً يومياً لتقديم أفضل رعاية صحية ممكنة لسكان لامبيدوزا. حفنة الأطباء المحدودين لدينا لا يقدرون على فعل ذلك وحدهم؛ يقدِّم طاقم التمريض والعمال مساعدةً لا يمكن الاستغناء عنها. لا يتردَّد أيٌّ منهم عن الركض إلى غرفة الطوارئ صباحاً ومساءً، ويبقون هناك طالما هناك حاجة لهم مهما طال الوقت، حتى لو استدعى ذلك اضطرارهم للعمل أياماً وليالي طوالاً دون توقف.

ها هي عيادة لامبيدوزا. ليست العيادة بيترو بارتولو، وإنما هي الرجال والنساء الذين يشاركون بيترو بارتولو كل شيء، بأياديهم وبقلوبهم. وبما أننا لا نستسلم بسهولة، ولا تفزعنا التحديات، بدأنا، بالشراكة مع إدارة الرعاية الصحية في باليرمو، مشروعاً لإنشاء مركزٍ إنسانيّ لطبّ المهاجرين. لن يكون أمراً سهلاً، لكني لا أشك في نجاحه.

سائح خارج موسم السياحة

ذات يوم، ظهر في العيادة رجل يرتدي نظّارة ذات إطار أسود غليظ. ظننتُه سائحاً خارج موسم السياحة. طلب أن يقابلني بخصوص مشكلة تنفُّس يعاني منها. أخبرتُه أني مشغول بعمل إداري، وعليه أن يسجل في غرفة الطوارئ. لكنه أصرّ، أزعجني هذا نسبياً، لكني وافقت أن أفحصه. ووصفتُ له بعض الدواء.

ثم أخذ الرجل في إلقاء الأسئلة، ما أثار ريبتي. في هذه اللحظة، غالباً ما أُدرك أنه على وشك تجاوز حدوده، فقال: «أنا (جيانفرانكو روزي)، مُخرج». ذُهلت. عرفت بالطبع من هو روزي، فقد شاهدت فيلمه الوثائقي (الحزام المقدس Sacro GRA) عام ٢٠١٣، الفيلم الذي فاز بجائزة الأسد الذهبي في مهرجان فينيسا. شرح لي أنه على الجزيرة يبحث عن وحي لصنع فيلم محتمل، لكنه لم يجد شيئاً مناسباً حتى الآن. ربما يعود السبب نسبياً إلى أن مركز استقبال اللاجئين كان مغلقاً حينها للتجديدات.

كان روزي سيغادر لامبيدوزا في اليوم التالي. عرفتُ على الفور

أني لا يمكن أن أتركه يذهب. منذ سنوات طويلة وأنا أبحث عن شخص قادر على إخبار العالم بما يجري هنا. السفن الغارقة تغطيها عدسات شبكات التليفزيون من جميع أنحاء العالم، لكننا بحاجة لشيء أكثر استدامة، شيء قد يؤدي لتأثيرٍ حقيقيّ. بعدما تُذاع مقابلةٌ تليفزيونية، تذهب بسرعة إلى طي النسيان، لا تترك أي انطباع دائم على عقول المشاهدين وقلوبهم. كل شيء اليوم يُستهلك بسرعة غير مفهومة. تُسلِّم المأساة موقعها في بقعة الضوء للمأساة التالية قبل أن ينهي المشاهدون تناول غدائهم. فكرتُ أن السينما ربما ستقدر على تقديم شيء لا يُنسى. لكن روزي قال كيف له أن يصنع فيلماً عن لامبيدوزا، وهو غير قادر حتى على تخيُّل كيف يبدأ.

رجوتُه أن يعيد التفكير، أعطيتُه ذاكرة التخزين «الفلاشة» التي أستخدمها لتوثيق قصص المرضى. لم أعطِها لأي شخصٍ من قبل، رغم أني أحملها معي طوال الوقت. قلت له «هناك خمسةٌ وعشرون عاماً من حياتي على هذه الذاكرة، يوميات المعاناة». جعلتُهُ يعِدني أن يعيدها إليّ، إذ أني لا أستطيع تحمل فكرة فقدانها. أخذها، ثم شكرني، وذهب.

مرّ يومان، صرت على اقتناع أني لن أرى روزي ولا «الفلاشة» مرّةً أخرى. لكن لم يمضِ اليوم الثالث دون مفاجأة، فقد ظهر روزي مرّة أخرى. لم يكن قد ذهب من الجزيرة. قال: «رأيتُ ما وثَّقتَهُ على الذاكرة، سأصنع الفيلم». كنتُ في منتهى السعادة. «لكني سأحتفظ بالذاكرة إن لم تمانع، أعدُكَ أني سأعتني بها وسأعيدها لك لاحقاً».

تلك كانت بداية المغامرة. لم يعرف أي شخص على الجزيرة أن روزي كان يصنع فيلماً. لم تكن معه معدات أو كاميرات أو سيارات أو خشبة كلاكيت. دار في الأنحاء بكاميرا فيديو صغيرة فبدا كالهواة. حتى أنا حسبته يختبر أفكاره لا يلتقط مشاهد حقيقية. كان يزورني في العيادة من حين لآخر ويلقي التحيّة، صرنا أصدقاء. طلب مني ذات مرة أن يصور لقطات للأشعة فوق الصوتية التي أجريها على الفتيات اللواتي ترجلن من المركب للتوّ. بعدها صوَّر موعداً لي مع فتى محلي ذي روح متّقدة يدعى (صمويل). على شفاه الجميع كان السؤال نفسه: «متى ستبدأ صنع الفيلم الحقيقي يا جيانفرانكو؟». لم يُجب على هذا السؤال قطّ. مكتبة سر من قرأ

ثم ذات يوم، أخبرني روزي أنه انتهى من الفيلم. لم أصدق أنه استطاع صنعه دون أية ضجة، دون مقاطعة حياة الناس على الجزيرة بأي شكل. أعاد لي «الفلاشة»، جربتُها لأتأكد أنها تعمل بكفاءة ولم يتغير أي من محتواها. وما أن فتحتُها حتى ظهرت على الشاشة صورةٌ لقارب صيد يعجّ بالمهاجرين. قال روزي: «أخبرني عنهم». فبدأت في الحديث، موضحاً أن القادرين فقط هم من يبتاعون تذاكر «درجة أولى» تسمح لهم بالسفر على سطح القارب، بينما قاعه المزدحم المختنق يبقى محجوزاً لمسافري «الدرجة الثالثة».

لم أعلم حينها أن هذه كانت اللقطة الأخيرة من فيلم (حريق في البحر *Fuocoammare*). اسم الفيلم مستقى من هتاف الاستنجاد «حريق في البحر!» الذي انتشر في لامبيدوزا عام ١٩٤٣، حينما قُصفت

السفينة الإيطالية (مادالينا) واشتعلت بالنيران في الميناء. صارت تلك الصرخة بعدها أغنية شهيرة.

بعد عدة شهور، تلقيت مكالمة من منتجي الفيلم. «دكتور بارتولو، نرجو منك المجيء إلى روما لأننا سنسافر إلى برلين. فيلم روزي من الأفلام العشرين المتنافسة على جائزة الدبّ الذهبي». لم أكن قد شاهدتُ الفيلم بعد، ولم أعرف إن كنت فيه. قالو لي أن أُحضرَ ريتا معي، فهذه كانت مناسبةً هامّة. أذكر كيف ترجلنا من سيارة ليموزين في برلين ووجدنا نفسينا نخطو على السجادة الحمراء بين النجوم. ماذا نفعل هنا بحق السماء؟!

في النهاية شاهدتُ (حريق في البحر). كان وقعُهُ عليّ كلكمَةٍ في البطن. عندما غادرتُ قاعة العرض، عجزتُ عن التوقّف عن التفكير في ما شاهدت. لم يكن مجرد وثائقي، كان سردية معقدة ذات وتيرة محسوبة يحكيها صوتٌ هامس له جاذبية وحذق. حفرَت المشاهد نفسها على جدار عقلي. قد تبدو هذه اللقطات للوهلة الأولى مشابهة لمثلها الكثير مما شاهدناه في السنوات الأخيرة، لكن الطريقة التي صورها بها روزي، دون وسيطٍ بينه وبين الواقع ولا فلتر أمام العدسة، جعلها محركة للمشاعر بشكل فريد من نوعه. لقد استطاع فعلها. أنا أيضاً شعرتُ بالانتصار، لأني طالما تمنَّيتُ مثل هذا بشدة: رسالة قوية نقية بلا شوائب وبلا إضافات لا طائل منها، تحطِّم كل الأكاذيب والتحاملات المسبقة التي تحيط بالقضية الحقيقية، توقظ الوعي العام وتفتح عيون الناس.

نيلتها في الفندق، أيقظتني ريتا أكثر من مرة. كنت أنتحب أثناء نومي وأفرز عرقاً بارداً. كنت في الحقيقة أعيش مجدَّداً واحداً من أسوأ كوابيسي.

كان ذلك في ٣١ يوليو ٢٠١١. كنتُ كالعادة في فافالورو بيير. جاءنا في هذا المساء عددٌ كبيرٌ من اللاجئين. في التاسعة مساءً تقريباً رسا في المرفأ قارب صيد طوله حوالي اثنا عشر متراً، على متنه مئتان وخمسون فرداً. بمساعدة طبيب شاب بدأنا بفحص الركاب، سامحين لهم بالترجُّل واحداً تلو الآخر. كانوا جميعاً مضطربين، بعضهم كان يولول ويشدُّ شعره، وآخرون يبكون بدموع صامتة. عجزنا عن فهم السبب، لم يكن أيّ منهم مريضاً بشكل خطير، ولم يكن هناك أي متوفّين على القارب. قال آخر المهاجرين بعد ترجله من القارب أن المشكلة في الخزانة. ولم يقل أكثر من ذلك.

بعد فراغ القارب من راكبيه، وجدتُ مدخل الخزانة، والتي لم تكن سوى برّاد لتخزين السمك في قاع المركب، فتحتُه. الفتحة كانت ضيّقة، والظلمة كانت حالكة. استطعتُ بصعوبة الانحناء وحشر نفسي داخلها. الهواء كان مكتوماً، يعبق برائحة سيئة. تحسَّستُ الأرض، وجدتُها طرية غير مستوية تحت قدمي. مضيتُ إلى الأمام بضع خطوات حذرة. الشعور كان غريباً، وكأني أمشي على وسادات. في الوقت ذاته ازدادت كثافة الرائحة المقرفة وصارت قوية بشكل لا يحتمل. تحسستُ باحثاً عن هاتفي المحمول وأشعلتُ مصباحه.

وجدتُ نفسي في حفرة من الجحيم.

غطّت الجثث أرضية الخزانة كلّها، كنت أمشي على أجساد ميتة. عددٌ لا يُحصى من أجساد الصغار، عراةً، مكدّسين فوق بعضهم البعض، بأطراف متشابكة. كان الأمر جديراً بمشاهد جحيم دانتي. تركَت الأظافرُ خدوشاً على الجدران، والدماء أيضاً. كثيرٌ من هؤلاء الصغار كان بلا أظافر.

تسلَّقتُ بسرعة خارجاً من الخزانة، وتقيأتُ على سطح القارب. كنتُ أرتجف، شاعراً بالضياع. لم أصدق أن ما رأيته كان حقيقة. مضيتُ لأخبر الآخرين في المرفأ بما رأيت، لم يصدقوا أيضاً. عندها تسلق رجال المطافئ المركب وهبطوا للأسفل، وبدأوا في جلب الجثث. ربطوا الحبال حولهم وسحبوهم خارجاً، واحداً تلو الآخر.

وضعنا الضحايا على رصيف المرفأ. كان كثير منهم بجماجم مشروخة؛ من الواضح أنهم ضُربوا. كان الناجون أشقاء وأصدقاء للمقتولين في الخزانة، لهذا كانوا يمرّون بكل هذه المعاناة. توعّدهم المهرِّبون بسوء المصير كي لا يصرخوا بما حدث. لكن ما أن بدأت الشرطة في استجوابهم، حتى ظهرت الحقيقة.

أول خمسين مهاجراً حُشروا في البراد كانوا الأصغر والأنحف، وقع الاختيار عليهم لأنهم الأكثر قدرة على الدخول في الفتحة. وعلى السطح وُضع المئتان والخمسون الباقون. امتلأ القارب بما يفوق طاقته. مصدر الهواء الوحيد للبراد كان الفتحة، وقيل للراكبين بالأسفل أنه ما أن يخرج القارب من الميناء سيسمح لهم بالصعود إلى السطح. خرج منهم خمسة وعشرون، لكن القارب

صار غير متوازن وكاد أن يغرق، فمنع المهرِّبون البقية من الخروج. كانوا غير قادرين على التنفس، أخذوا يصرخون ويحاولون الهروب، لكن المهربين ضربوهم ورموهم مرة أخرى داخل البراد. في محاولة يائسة للخروج، تكتَّلوا جميعاً ليخرجوا معاً، فلا توقفهم حتى الضربات. لكن العنف الإنساني لا حدود له، وضع المهربون باب الكابينة فوق الفتحة وجلسوا عليه. لا مزيد من الهواء، لا مزيد من الحياة.

خمسة عشر دقيقة، تلك كانت كل المدة التي استغرقتها أرواح الصغار الخمسة والعشرين لتخرج. خمسة عشر دقيقة، لا بدّ أن هؤلاء المساكين الصغار فعلوا فيها كل ما بوسعهم لينجوا. خمسة عشر دقيقة، لا بدّ أنها مرّت عليهم كأنها مئة عام.

عندما فحصتُ أجسادهم، فهمتُ سر الخدش والدماء على جدران الخزانة. كانوا يحاولون تمزيق ألواح القارب من الداخل، أخذوا يكشطونه حتى نزفت أصابعهم ووقعت أظافرهم، حتى انكشف لحم أياديهم وعظامهم.

ظللتُ غير قادرٍ على التفكير في شيء آخر لأيام طويلة بعدها. عجزتُ عن مسامحة نفسي، لكوني دنَّستُ حرمة موتهم وخطوتُ فوقهم. عادت صور الجدران المخدوشة والعظام المكسورة والغرفة المكسوة بالدماء لتفرض نفسها على عقلي مرة أخرى، مثل مشهدٍ من فيلم رعب.

سمعتُ في خيالي أصوات الصغار يصرخون في يأس، يخلعون

عنهم ثيابهم في نضالهم المحموم للنجاة من الحفرة المظلمة الخالية من الهواء، رأيتُ الأيادي المشروخة تخمش الخشب، خمسون يداً دامية، خمسة وعشرون صوتاً يصرخ. والبقية على السطح مرغمون على البقاء ساكنين رغم علمهم بحقيقة ما يحدث. كان عليهم أن يدّعوا أنهم لا يسمعون نداءات رفاقهم المتوسِّلة بينما يموتون في المصيدة مثل الفئران. وعندما فكرتُ في المتوحشين الذين فعلوا هذا، أعمى عينيَّ الغضب.

في تلك الليلة في برلين، عاد الغضب ليطفو على السطح. استيقظتُ في اليوم التالي في أسوأ حالاتي، غارقاً في العرق. في هذا الصباح عدتُ مع ريتا إلى روما. ذهبت ريتا إلى لاميدوزا مباشرة، أما أنا فبقيتُ في العاصمة لأكون جاهزاً إن استدعونا إلى برلين مرة أخرى. وهو ما حدث، في السادس والعشرين من فبراير ٢٠١٦، يوم إعلان النتيجة. جلستُ بجوار روزي. كُلَّما قُدِّمت جائزةٌ نرتجف أكثر. المركز السادس، الخامس، الرابع، الثالث. كلَّما نودي على اسم ليصعد على المنصة ترقص أقدامنا في أماكننا. وعندما نادوا على اسم المركز الثاني، عرفنا أننا الفائزون. قفزنا من الفرحة. لقد فزنا، لقد حصلنا على الدّبِّ الذهبّي[1].

لم يسعْنا تصديق أنفسنا. لقد حرَّك (حريقٌ في البحر) قلوب لجنة الحكام. لن أنسى كلمات (ميريل ستريب): «(حريق في البحر) فيلم ذو رؤية سينمائية ضرورية وعاجلة وموسعة للخيال». لم أمام

---

(١) ترشح (حريق في البحر) لجائزة أوسكار أفضل فيلم وثائقي أيضاً عام ٢٠١٧.

عيني عملي طوال الخمس والعشرين سنة الماضية، كادت أن تصيبني سكتة دماغية أخرى.

لكن حماسي ما لبث أن فتر. ربما نجحنا في نشر رسالتنا، لكن هؤلاء الذين كان يجب أن يفعلوا أشياء حاسمة بخصوص الأمر لم يفعلوا. بدلاً من ذلك يدعمون الحدود وينصبون الحواجز والجدران العالية. الحدود مثل القلوب والعقول، مغلقة.

لم يعِر أحدٌ انتباهاً لكلمات البابا فرانسيس في ليسبوس، عندما أطلق على ما يحدث أنه: «أسوأ كارثة إنسانية منذ الحرب العالمية الثانية»، أو إيماءته عندما رحَّب بثلاث عائلات من اللاجئين في الفاتيكان.

استقبلني البابا وسط حضور خاص بعد زيارته لليسبوس مباشرة. كان بوسعي قراءة حزن في عينيه يشبه حزني. كان واعياً لكوننا نحيط أنفسنا بجدران خفيّة بلا أبواب، لكوننا نحارب حرباً يائسة ضد هؤلاء الذين يرغبون في زوال المشكلة وكل ما يفعلونه هو تجاهلها. حاولتُ أن أسيطر على مشاعري وأبقى هادئاً، لكن المشاعر كانت تزلزلني ذلك اليوم. كان البابا قد زارنا في لامبيدوزا قبلها ذلك اليوم، قبل حادثة الغرق في الثالث من أكتوبر ٢٠١٣. مشاعري المتقلبة تمكَّنَت مني ولم أقدر على التفوّه بكلمة، لكن عندما صرتُ وجهاً لوجه معه منفردَين، بكيت: «أيها الأب المقدس، ساعدنا، لا تجعلنا نرى مزيداً من الجثث في لامبيدوزا، لنذهب إلى ليبيا ونحضر المهاجرين بأنفسنا. لنتوقف عن السماح لذلك بالحدوث».

أعطاني البابا حينها مسبحة، أبقيها معي دوماً منذ ذلك الحين. ثم تحدّث عن المعاناة التي شهدها في ليسبوس، شقيقة لامبيدوزا في المعاناة.

بعدها بشهرين وصل (حريق في البحر) للجزيرة، في أبريل ٢٠١٦. كان عرضه حدثاً عملاقاً، خاصة وأننا لا نملك قاعات عرض سينمائية في الجزيرة. كنت وروزي متوترين، خائفين من أن يجد اللامبيدوزيون أخطاء في الفيلم تضايقهم، لكن مخاوفنا كانت بلا أساس. رغم أنه كانت هناك بعض الاعتراضات بين الجماهير، إلا أن الفيلم نجح في لامبيدوزا أيضاً.

في اليوم نفسه حدث أمرٌ آخر أكثر روعة؛ شبكة البث التليفزيوني الإيطالية الحكومية R.A.I أرادت أن تقدم تبرعاً للخدمات الصحية اللامبيدوزية، تكريماً لفيلم (حريق في البحر). تواصلوا معي ليسألوني عن أكثر ما يمكن أن يساعد، موضحين أن التبرع لا يحتاج بالضرورة أن يكون مرتبطاً باللاجئين. فطلبتُ منهم بعض الآلات الموسيقية للأطفال ذوي الهمم في المركز، بعدما لاحظتُ كيف يستمتعون بالنقر على ألعابهم البلاستيكية والبيانو اللعبة. عندما رأى الأطفال الجيتار والكيبورد والأكورديون الأحمر اللامع، بدؤوا فوراً في العزف، رغم أنهم لم يفعلوا من قبل قطّ. كانوا في غاية السعادة. شاركنا الاحتفال نصف سكان الجزيرة في قاعة المركز الكبرى. تأثّرنا جميعاً برؤية الفرحة في عيون (روزالبا) و(سيليستيانو) و(سالفاتوري). وحده (كلاوديو)، فتى أحبّه بشكل خاص، لم يكن في الحفل. وعندما كان

الحفل على وشك الانتهاء، وكنتُ قد فقدتُ الأمل في رؤيته، وصل أخيراً. احتضنني، ثم حمل الأكورديون بأصابع مرتجفة. ظل يعاني للحظات لإيجاد مفاتيحه، ثم انطلقت الموسيقى وكأنها فعل عصا ساحر. كان مشهداً رائعاً، الكل يعزف، الكل يغني، والكل يرقص.

أخيراً أنا في البيت. بعد كل تلك الشهور من الضغط والتوتر والمشاعر المنفعلة، كان ذلك أفضل يوم على الإطلاق. ذلك المكان كان «سجادتي الحمراء»، المكان الذي أستطيع فيه عيش حياتي حتى منتهاها.

لن أنسى

إن نطقَت جدران العيادة، فهي ستتحدّث عن الكتاب الذي قرأناه لكن نسيناه بسرعة. يحكي (إيلي فيزيل) في سيرته الذاتية (ليلة) عن تجربته في الترحيل إلى معسكرات الاعتقال في (أوشفيتز) و(بونا) و(بوخنفالد)، حيث فقدَ هويّته وصار رقماً.

«لن أنسى أبداً تلك الليلة، ليلتي الأولى في المعسكر، التي صارت حياتي بعدها ليلة واحدة طويلة. لُعنتُ سبع مرات، وخُتمتُ سبع مرات. لن أنسى أبداً الدخان، لن أنسى وجوه الأطفال الذين شاهدتُ أجسادهم تتحول لسُحب من الدخان تحت السماء الزرقاء».

أقتبسُ هذه الكلمات لأنها غير بعيدة عن واقعنا الحالي.

عندما جاءت إحدى المجموعات، فحصتُ بضعاً وسبعين طفلاً هزيلاً. لم يقربوا ماءً ولا طعاماً لفترات طويلة، سافروا على «الدرجة الثالثة» في قارب لسبعة أيام، محشورين بين كل من لم يتمكنوا من دفع أجرة عبور البحر على السطح. على أجسادهم

ندوب سببتها النصال وحروق السجائر وصنوف العذاب المختلفة التي أخضعهم لها سجّانوهم.

السجون الليبية هي النظير المعاصر لمعسكرات الاعتقال النازية. لا تختلف الظروف التي يعبُر فيها المهاجرون الصحراء والبحر، عن تلك التي في قطارات الموت التي كانت تنقل ضحايا الهولوكست. وأولئك الذين ينصبون الحوائط ويصدّون اللاجئين، لا يختلف سلوكهم كثيراً عن سلوك المتعاونين مع النازيين، الذين كانوا، حسب تعبير الفيلسوفة (حنة آرندت)، تجسيداً لـ«تفاهة الشر». كل من يسمح بترك آلاف الأطفال يموتون في البحر أو يعيشون في ظروف غير آدمية داخل حدود معسكرات اللاجئين، لا يقلُّ قسوة عنهم.

لعب شخصان دوراً رئيسياً في ترسيخ هذا الاعتقاد عندي. أوّلهم قابلته في عيادة لامبيدوزا، التي لم تعد فقط مكاناً للاستشفاء، بل تتحول بسرعة أيضاً إلى مكان للنقاشات واللقاءات. في منتصف ٢٠١٤، جاء المراسل الصحفي والشاعر البولندي (جاروسلاف ميكويوفسكي) إلى مكتبي، لإجراء مقابلة صحفية عن الأزمة. بسرعة شرعتُ في الحديث معه عن كل شيء، لا أعرف ما الذي دفعني لذلك. شرحتُ له ما يحدث، وعبّرتُ عن حزني الشديد بخصوص ما نشهده من مآسٍ. أخبرته بكلِّ شيء وكأني أتمنى لو يأخذ عني بعض الحمل الذي أعاني من حمله. لكن هذا لم يكن السبب الوحيد في بوحي له؛ فقد شعرتُ بألفة شديدة مع هذا الرجل الذي لم أعرفه إلا لنصف ساعة. كان بوسعي الشعور بتعاطفه. كتب لي

لاحقاً «برغم تباين أصولنا وخبراتنا، إلا أننا نحمل غريزة الأخوّة الأساسية المجردة ذاتها. يدرك كلانا أنَّ الجنسَ البشري كلّه أسرةٌ واحدة، وكلُّ أشقائنا البشر في الحقيقة جزء من وجودنا».

تلقَّيتُ في أكتوبر ٢٠١٥ دعوة لمدينة (كراكوف)، لتلقي جائزة (سيرجيو فييرا ميلو) في مجال حقوق الإنسان. هناك أخذني جاروسلاف في جولة على حانات المدينة. مررنا على حانة (ألخيميا)، الواقعة في حي اليهود التاريخي (كازيميرز)، وشربنا الفودكا. كانت تجربة سوريالية. لا أذكر متى كانت آخر مرة كنت فيها في مكان بلا مكالمات هاتفية دولية ولا طلبات عاجلة للحضور إلى المرفأ. توقفَّ الزمن عن المرور، وكان هو الشخص الذي جعله يتوقف.

اللقاء الثاني حدث أيضاً بفضل جاروسلاف أثناء زيارة كراكوف. في فندق (أوستريا)، القلب النابض للمجتمع اليهودي المحلي. جلسنا برفقة (ليوبولد كوزلوفسكي)، المعروف باسم (كليزمر الأخير). كوزلوفسكي هو موسيقي وملحن ومغنٍّ، ظهر في فيلم (قائمة شندلر) للمخرج (ستيفن سبيلبرج).

قدَّمني جاروسلاف لكوزلوفسكي، وأخبره عني بعض الشيء. نظر الموسيقي في عينيّ مثلما فعلتُ أنا مع جاروسلاف، وشرع في الحديث. ما أخبرني به، طبقاً لجاروسلاف، لم يخبر به إلا أولئك الذين رأى فيهم انعكاسه الإنساني. أخبرَني كيف شاهد يهود كراكوف يموتون أثناء الاحتلال النازي، وكيف خسر كل شيء «وعندما أقول (كل شيء)، أعني كل شيء». تحدَّثَ عن العامين اللذين

قضاها في معسكرات الاعتقال، مصاحباً الضحايا في مسيرتهم للموت بموسيقاه. كان يعزف مرغماً لمتعة النازيين. أنقذه الفنّ مراراً وتكراراً من الموت.

تركتنا شهادة الفنان ذي السادسة والتسعين من العمر مصعوقين.

كتب جاروسلاف في حكايته الخاصة عن اللقاء: «نظر بيترو إلى كليزمر العجوز. لا، لم يكن عجوزاً، بل كان عتيقاً؛ عتيقاً مثل قومه المختارين للعذاب الأبدي. وجهُ الطبيب كان كوجهِ البابا (يوحنا بولس الثاني) عشيّة وفاته، عندما أراد أن يُحيّي العالم من ميدان القديس بطرس ولم يقدر. نهض ليوبولد وأمسك يده. كان واضحاً من تلك المصافحة، أن كلا الرجلين فَهِما بعضهما تماماً».

أحياناً تأتي القسوة من حيث لا تتوقعها. ذات يوم، وصل المرفأ مئتا مهاجر. كانوا في حالة جيدة، ساعد الحرس المالي في نقلهم لمركز الاستقبال. لكن بزاوية عيني لمحتُ جنديين يسحبان اثنين من المهاجرين ويضعانهما في سيارة جيب. كانا شابّين من جنوب الصحراء الإفريقية، متعبين من رحلتهما. وبدلاً من أن تنطلق الجيب إلى المدينة، انطلقت ناحية المطار. أخبرتُ صديقي الطبيب بما رأيت، وانطلقنا على دراجة نارية، نتتبعهم.

تابعنا الجيب حتى وصلنا للطريق الواسع المفتوح، حيث ركَن الجنديان السيّارةَ جانب الطريق وسحبا المهاجرَين خارج السيارة، وبلا سبب تقريباً أمطراهما بالركلات واللكمات. حالة من العنف غير المبرّر. أسرعنا حتى بلغناهم.

قال زميلي: «ما الذي تفعلونه أيها الأوغاد؟ توقفوا فوراً».

ويبدو أن الجنديين لم يصلا إلى لامبيدوزا إلا مؤخّراً، إذ لم يعرفانا. «من أنتما؟ وماذا تريدان؟ فلتظهرا هويّتيكما».

«بل من أنتما؟ وما الذي تحسبان نفسيكما فاعلين؟».

اشتعل التوتر بيننا، مثل مشهد من فيلم رعاة بقر قديم. لم يتوقع الجنديان الصحبة، ولم يتوقعا ردَّ فعلنا على حديثهما.

«ستأتيان معنا إلى المعسكر».

قلت: «بل أنتما من ستأتيان معنا، وسأتأكّد من أنكما لن تفلتا بفعلتكما».

واتفقنا على أن أذهب مع الجنديين في الجيب، وسينطلق رفيقي بالدراجة النارية إلى مركز الاستقبال وينبّه العاملين فيه أننا قادمون. في الآن ذاته، كان المهاجرَان على الأرض مرعوبين، بقدر ما كانا متألّمَين. لم ينبسا بحرف. تفحّصتهما بحثاً عن أية إصابات خطيرة. ولحسن الحظ لم توجد عظام مكسورة. ساعدتُهما على الركوب في الجيب واحداً إثر الآخر، وجلستُ بجوارهما، محاولاً بقدر إمكاني طمأنتهما أنهما لن يتعرضا لأي إيذاء بعد الآن. جلس الجنديان في المقعدين الأماميين، وانطلقنا في صمت. عندما وصلنا مركز الاستقبال، ساعدتُ الشابين على الدخول، وطلبتُ من المترجم أن يعتني بهما. ثم ذهبنا جميعاً إلى المعسكر. فوجئ القائد لرؤيتي مترجِّلاً من السيارة برفقة رجُليه. احتضنني، «ما الذي أحضرك إلى هنا؟».

تراجع الجنديان في رعب. أدركا من رؤيتهما لقائدهما يحيّيني أنهما وقعا في مشكلة. أخبرتُه بما حدث، كان صوتي مرتجفاً من فرط السخط الذي حاولتُ كبح جماحه.

«أيها القائد، إما أن يغادر هذان الجزيرة قبل أن ينتهي اليوم، أو سأجعل من المسألة قضية رأي عام في الأخبار المحلية والعالمية. سأجعل من هذين المهرّجين مادّة لسخرية إيطاليا كلها. في حين أكاد أموت محاولاً إنقاذ حياة أكبر عدد ممكن من الناس، يأتي هذان ليضربا الصبية المهاجرين بهذا الشكل؟ ما الذي يدور في عقليهما؟».

كانت غضبتي عاتية. لم يكن هناك أي عذر يسمح لهما بالتصرف مثل الفاشيين، ولم يكن هناك ما يمكن قوله دفاعاً عنهما. حدَّق فيهما القائد بغيظ شديد، يكاد يذوب من فرط الإحراج.

قبل أن يحين الصباح التالي كان الجنديان قد ذهبا، ولم يضع أي منهما قدماً في لامبيدوزا بعدها. من يعلم ما الذي كان ليحدث إن لم نلحقهما في الوقت المناسب؟ تصرفّهما الحقير قد يؤدي لتدمير مصداقية زملائهما، مئات الجنود الذين يلعبون دوراً محورياً في مساعدة اللاجئين بمنتهى الاحترافيّة والإنسانيّة.

مقبرة القوارب

في شهور الصيف، اعتاد صيادو لامبيدوزا على أخذ السيّاح في جولة حول ساحل الجزيرة على قواربهم. كان لأبي قارب آخر غير الكينيدي يُدعى (بيلاكيرا)، يستخدمه عادةً لهذه الغاية. أحببتُ لعب دور المرشد السياحي للركاب. ذات صيف في سنوات مراهقتي، وصلَت الميناء سفينةٌ تحمل (جيوفاني ليوني)، رئيس الجمهورية بنفسه. قفزتُ وأبي بسرعة منتهزين الفرصة وعرضنا خدماتنا. قضينا أسبوعاً مع الرئيس على سطح بيلاكيرا. جعلتني هذه الوظيفة أشعر بالأهمية، خاصةً وأن ليوني انبهر بجمال لامبيدوزا. طلب منا أن نريه شيئاً جديداً كل يوم: آفاق استثنائية مبهرة، أو شواطئ منعزلة في أرجاء الجزيرة الخفية.

كان ليوني بسيطاً متواضعاً إلى أقصى درجة. تبادلنا المزاج كثيراً بخصوص اسم القارب بيلاكيرا، الذي بدا له اسماً غريباً. لم أخبره أن مصدره pilacchi، أو الصرصور ذو الأجنحة، الذي كان يزحف في الأنحاء. عندما كنا نأخذ السياح والغطاسين على متن بيلاكيرا

مقابل أجرة بسيطة، كنا نحاول أن نوفر لهم وجبة بسيطة. الصعوبة كانت تكمن في أن لا تصل الصراصير للطعام قبلهم. بعد سنوات طويلة، عندما ألغيت رخصة القارب، اكتشفت أن عمره كان ١٠٢ عاماً، عمّده جدّي الأكبر باسم (جايتانينو). لم أدرك أنها عاصرت كل هؤلاء الـ(بارتولو).

أحياناً كان الصيادون يأخذون الزوار في رحلات على قوارب (ترابيكولي)، التي تُدعى أيضاً (سيكاليفا)، وهي قوارب شراعية دون محركات. لكن خفر السواحل قرّروا ذات يوم إحالة الترابيكولي القديمة إلى التقاعد، لأنها عتيقة وعفا عليها الزمن. كدّسوها فوق بعضها في (كالا بالما)، الشاطئ الواقع خلف المرفأ. كانت قوارب جيدة. بسرعة صار المكان ساحة للعبنا. صنعنا من مؤخرات الزوارق (ناتشي)، وهي أراجيح مصنوعة من الحبال، نتأرجح بها لارتفاعات تصل لستة أمتار فوق الأرض.

ثم قرّرت السلطات التخلص من القوارب القديمة نهائياً، لأنها تشغل مساحةً أكبر من اللازم. حتى الأطفال كانوا مستائين عندما أدركنا أن جزءاً من تاريخنا في طريقه للزوال. كانت هذه القوارب ذات زمن عماد حياة اللامبيدوزيين، أما الآن فمصيرها إلى ساحات الخردة. لكن نُدرة الأشجار في لامبيدوزا، جعل لخشب تلك القوارب قيمة عالية.

لسخرية القدر، أُوكلت مهمة تدمير تلك القوارب لنا، نحن الأطفال. فكّكنا ألواحها واحداً تلو الآخر، وسرنا مثل طابور من

النمل، نحمل الألواح للخباز الذي احتاجها لإشعال الأفران.

أحزنني أن أراها تحترق ببطء حتى تتحول إلى رماد. عزائي الوحيد كان أننا كسبنا من هذا العمل بعض النقود. في الواقع، بعد كنس الرماد من الأفران إلى أكوام القمامة، راودتنا فكرة البحث فيه، أملاً في إيجاد أشياء أكثر قيمة: المسامير التي ثبتت الألواح في هيكل السفينة، حتى إننا كثيراً ما كنا نتشاجر عليها، خاصة أنه كان هناك رجلٌ مسنٌّ في المدينة يجمع الخردة المعدنية، ومستعدٌّ لشرائها. ما دفعه لنا فاق ما كان الخباز يدفعه لأجل الأخشاب بكثير.

عندما كبرتُ، كثيراً ما فكرتُ بالأخطاء التي اقترفها جيل الآباء. كان يجب أن نحفظ بعضاً من هذه القوارب في متحفٍ لحفظ التراث. اليوم، نرتكب الخطأ نفسه مرّةً أخرى؛ بالقرب من استاد كرة القدم، ثمة كومة من القوارب التي استخدمها المهاجرون للعبور. تحكي تلك القوارب قصصاً دراميّة حزينة. نسمي ذلك المكان (مقبرة القوارب). مقبرة ملونة، مليئة بالقوارب الزرق والفيروزية والبيض. تحمل أسماء عربية على جوانبها، أسماء تحفظ ذكرى أيامهم الخوالي، عندما كانت قوارب صيد تُعين الصيادين على كسب قوتهم، ولم تنقل الناس إلى حتفهم. ستُفكَّك هذه القوارب أيضاً بكل تأكيد، لا توجد مساحة كافية لحفظها، بالضبط مثل مصير الترابيكولي. لن ينجو منها إلا سترات النجاة والأوشحة والملابس التي استخلصها صغار اللاميدوزيين؛ هذه المرة لعرضها في متحف.

جلبتَ هذا على نفسك



تلقَّيتُ من المرفأ مكالمةَ عاجلة. وصل إلى الشاطئ خمسمئة شخص على قارب واحد، وكلهم تقريباً مصابون بالجرب. في ليبيا، أُرغموا على العيش في ظروف قذرة لشهور، ينامون على سررٍ من القش، تغطيهم بطانيات مليئة بالقمل والبراغيث. في مثل هذه الظروف، أنت سعيد الحظ إن كان الجرب أسوأ ما يصيبك. تسكن العثة تحت بشرتك وتسبِّب لك حكَّة مريعة. كلما حككتَ أكثر ازداد الألم سوءاً وزادت الرغبة في الحكّ، حتى تُصبح في النهاية مُغطاة بالقروح المتقشرة التي تُسبب أسوأ الآلام.

كثيراً ما تعاملتُ مع الجرب من قبل، لكن هذه الدرجة من التفشي كانت غير معتادة. حالة زوجين إرتيريين صغيرين كانت أسوأ إصابة بالجرب رأيتها في حياتي. لحم أيديهما كان عارياً وجلدهما يتساقط، حتى نزعا عن نفسيهما الجلد تقريباً من كثرة الحكّ، وكأنه جلد شخص آخر. نُقلا إلى مركز الاستقبال مع الآخرين، حيث سيتلقون دورة علاجية من (بينزوات البينزيل) لمدة يومين، حمية

دوائية فعالة لكنها تحتاج لجرعات محسوبة بعناية. حسبتُ الجرعات المطلوبة بنفسي، كانت ثقيلة بشكل غير معتاد، لكن لم يكن هناك بديل. العدوى كانت حادّة ويجب القضاء عليها مرّة واحدة.

كأطباء، علينا دوماً اتخاذ قرارات صعبة. إن لم تكن قادراً على التكيُّف مع المخاطر التي تصاحب القرارات، فليس عليك اختيار هذا المجال من البداية. لا توجد طرق مختصرة، عليك دوماً أن تصفّي ذهنك عندما تتخذ قرار كيفية معالجة مريض، وعندما يُتّخذ القرار، فلا رجوع عنه.

عندما انتهى اليومان، عدت لمركز الاستقبال لمتابعة حال الزوجين. وبينما كنتُ أقف في الطابور منتظراً انتهاء الإجراءات الأمنية وكل الروتين المصاحب المعتاد، رأيت شاباً وشابة لم أعرفهما يقتربان مني. كان الرجل يبكي، انحنى على ركبتيه أمامي وقبّل يدي. أصابتني الحيرة. «أنهض، ماذا تفعل؟».

«أخيراً، بعد سنوات من العذاب، استطعتُ وزوجتي نيل ساعات هانئة من النوم في الليل». حينها فقط عرفتهما، الزوجان الإرتيريان اللذان جئت لأراهما. احتضنتُهما وغادرتُ المكان، لا أحتاج لمزيد من التأكيد أن العلاج قد نجح.

«تعال إلى الحمام فوراً يا بيترو».

أيقظتني ريتا ذات يوم من غفوتي على الأريكة، بدا صوتها قلقاً. كنت في المرفأ لساعات طويلة، فاحصاً مجموعة أخرى من اللاجئين، ومررت على البيت لآخذ استراحة قصيرة. كنت لا أزال

نصف نائم، لكن ما قالته بعدها طرد النعاس عني تماماً: «وجدتُ في برازها دماً».

ولدت ابنتنا روزانا بمشكلة في قلبها، أُجريت لها جراحة عندما كانت في الشهر الخامس من عمرها. مرت خمس سنوات منذ ذلك الحين، لكننا ما زلنا نوليها قدراً من الحماية أكثر من أخويها، ويصيبنا التوتر إن أصابتها نزلة برد عادية.

أخذنا الطائرة التالية إلى باليرمو، وهرعنا بروزانا إلى المستشفى. أجرى عليها الأطباء كل التحاليل الممكنة، لكنهم لم يجدوا سبباً لذلك النزيف. فأخذنا الطائرة التالية إلى روما. تكاد عقولنا تنفجر من فرط القلق. أُدخِلت روزانا هناك في مستشفى أطفال ذات سمعة حسنة، لكنهم أيضاً لم يجدوا لها تشخيصاً مناسباً.

مرّ أسبوعان، ولا يزال المختصون في حيرة من أمرهم. ثم خطر لنا أمر. قلت للطبيب أن يجري تحليلاً على برازها. رفض، وقال إن هذا ليس ضرورياً، وإنّي بحاجة للتحلّي بالهدوء، وإنهم سيجدون طريقة لعلاجها عاجلاً أو أجلاً. لا شيء أسوأ من كونك طبيباً بين أطباء، ورغم ذلك تشعر بقلة الحيلة بينما تضيع ابنتك أمامك.

أقنعتُ ممرضة أن تأخذ عيّنة من براز روزانا في الخفاء، أخذتُها إلى مختبر مختصّ بالأمراض الاستوائية. وافقت واحدة من الأطباء على المساعدة. «أترك العينة هنا، وسأهاتفك ما أن أصل إلى نتائج». لكني لم أضطرّ للانتظار طويلاً، قبل أن أصل للطابق الأرضي كانت قد وصلت للنتيجة. بينما أخرج من المبنى وجدتها تنادي

من الشرفة. «دكتور، عد لو سمحت». قفزتُ على الدرج صاعداً الأدوار الثلاثة، يكاد قلبي يخرج من صدري.

أخذَتني إلى الغرفة حيث وضعتِ العينات تحت الميكروسكوب. «أنظر لكرة القطن الصغيرة تلك، إنها (جيارديا)». تعلّمتُ في الجامعة عن عدوى الجيارديا، هي نوع من الطفيليات المجهرية التي تلصق نفسها بالأمعاء. وتسبِّب أحياناً نزيف بعض الدم مع البراز، لكنها سهلة العلاج. تخميني كان صحيحاً: لا بدّ أني التقطت العدوى أثناء عملي في المرفأ، ورغم أنه لم تظهر عليَّ أية أعراض، إلا أني نقلتها غالباً لروزانا. تنتشر هذه العدوى بكثرة في بعض الدول التي يأتي منها المهاجرون هاربين، ذلك لأن الجيارديا تتكاثر في المياه الملوثة.

شكرتُ الطبيبة بحرارة، وهرعت ُعائداً للمستشفى، مبتهجاً بوصولنا لتشخيص أن الحالة ليست خطرة. أخبرتُ ريتا بالأمر واحتضنتُها بعمق. كانت روزانا في سريرها، أمطرتُها بالقبلات وكأني لم أرها منذ قرن كامل. أخيراً صرنا سعداء ومرتاحي البال. في اليوم التالي عدنا للبيت، بالعلاج في جيوبنا.

تعافت روزانا بسرعة، ولم يتبقَّ من تلك الأيام العشرين إلا ذكرى سيئة باهتة. لكن عندما أخبرتُ بعض المعارف والأصدقاء بما حدث، كان في ردِّهم مرارة. وكأنهم يضمرون فكرة (أنت من جلبتَ هذا على نفسك، لم يُرغمك أحدٌ على أن تقضي كل وقتك في المرفأ مع أناس قد يحملون العدوى لشتى الأمراض).

لاحظتُ انتشار هذا السلوك مع زيادة عدد طالبي اللجوء. والتغطية الإخبارية المتقطعة والمتغافلة أحياناً لا تساعد في درئه. تتردَّد الأمهات في إرسال أطفالهنَّ إلى مدارس قريبة من مركز الاستقبال، بل يتظاهرن أحياناً أمام الفصول اعتراضاً على التدريس لأطفال المهاجرين في الفصول نفسها بعد انتهاء الدوام الدراسي الرسمي.

هذه ليست فقط ردود فعل غير أخلاقية، وإنما حمقاء أيضاً. إنها لحقيقةٌ أن داء الجرب يظهر من حين لآخر، لكننا نتأكَّد من معالجته قبل أن يخرج المهاجرون من الحجر الصحي، وغيره من الأمراض المعدية النادرة. هذه ببساطة وظيفتنا كأطباء، تحديد الحالات الخطرة واحتوائها ومعالجتها بشكل يمنع انتشارها. وهو الإجراء نفسه الذي نفعله مع المرضى الإيطاليين أيضاً.

لا يمكن أن نسمح لمخاوفنا أن تحكمنا. علينا أن نفتح أبواب بيوتنا للمهاجرين. فعلتُها أنا وريتا من قبل، وسنفعلها مرَّةً أخرى.

فيفور ذات العينين الواسعتين

إنها الثانية صباحاً من يوم الخامس والعشرين من مايو للعام ٢٠١٦.

الكلُّ في حالة تأهّب. أُنقِذت حاويةٌ في مضيق صقلية، عشرون من ركابها في حالة خطرة، ما يعني أنهم غير قادرين على استكمال رحلتهم، فالتقطهم قاربُ إنقاذٍ وتابعها بدلاً عنهم.

جهَّزنا سيارات الإسعاف وطائرتينا المروحيتين، والمروحية الثالثة الخاصة بجزيرة (بانتيلريا). لم يصل القارب إلى المرفأ قبل الثامنة صباحاً. أغلب ركابه كانوا نساءً، ضحايا ما يمكن أن نسميه (داء الطوف المطاط).

خلال خمسة وعشرين عاماً قضيتها مع الطوارئ الطبيّة، لم أتعامل مع حروق من هذا النوع، حتى بدأت العملية (ماري نوستروم)[١]

(١) عملية (ماري نوستروم) هي عملية للقوات البحرية والجوية الإيطالية، لإنقاذ اللاجئين من السفن الغارقة. دامت بين ٢٠١٣ و٢٠١٤.

ومهمات فرونتيكس. كلَّما وسع المنقذون نطاق عملهم، وجدوا مزيداً من المهربين يرسلون الناس في قوارب مهلهلة متداعية، أقرب ما تكون لأطواف مطاطية ذات محركات، وقودها البنزين لا الديزل.

ملأ المهربون خزان الوقود أثناء الرحلة، وانسكب منهم بعض الوقود بطبيعة الحال. يمتزج البنزين بملح المياه فيتحول إلى خليط خطير، يتسلل بين الركاب على سطح القارب مثل الثعبان.

عادة ما يجلس الرجال في الأطواف على الحواف، بينما النساء في المنتصف حاملات الأطفال بين أيديهن. يبلِّلُ المزيج الخطير ثياب النساء؛ في البداية يعطيهنَّ إحساساً لطيفاً هيّناً بالدفء، لكن مع الوقت يسبِّب حروقاً كيميائية خطيرة على بشرة أرجلهن وأقدامهن وأردافهن. يأكل السائل الملابس ببطء، ثم يتسلل إلى الجلد ويشوِّهُهُ بالتدريج.

المشهد على المرفأ صار كارثياً بكل معنى الكلمة. أولى النساء اللواتي رأيت، كانت متمدِّدة على نقّالة، تغطّيها بطانية طوارئ من الفويل. لم تتبقّ لديها أية قوة تمكّنها من الوقوف. المرأة الثانية استطاعت المشي بالكاد، مستندة عليّ وعلى أحد المتطوعين، حتى وصلَت لسيارة الإسعاف. تمدَّدت المرأة الثالثة على الأرض في قارب الإنقاذ، ملفوفةً بملاءةٍ بيضاء، بدَت كملاك، لكنه ملاك يعاني العذاب. نقلناها للمرفأ، قلتُ للمنقذ: «برفق، كن حذراً عندما تلمسها». كانت حالتها سيئة لا تكاد تسمح لها بالحركة، لكنها استطاعت المشي بضع خطوات. بحركة رقيقة نزعتُ عنها الملاءة،

ذهبَت البشرة عن ردفيها وصار اللحم عارياً تماماً. لكنها أصرّت على الاحتمال، وقاومت أن تصدر عنها آنات الألم، رغم أن وجهها كان يرتجف. ترجّلت النساء من القارب واحدة تلو الأخرى، تعاني كلّ منهن من حروق الخليط المريعة.

ثم ناولني أحد المتطوعين رضيعة جميلة صغيرة، ذات عينين سوداوين كبيرتين مضيئتين ووجهٍ مستدير، بدَت في حالةٍ من الذهول التام. سألتُ أين أمها، لكن لم يجبني أحد. أعطيتُها لإيلينا، التي كانت موجودة لتقديم المساعدة ذلك اليوم. قلت لها: «لا تتركيها وحيدة ولو لثانية، ولا تعطيها لأي شخص إلا إن كان والدها. اعتني بها حتى أعود أرجوكِ». قبّلتُ الطفلة على رأسها، وذهبتُ خلف النساء.

في العيادة، ضمّدنا الجراح. حيثما تنظر ترى قرحة كبيرة بيضاء على بشرة سوداء. كنا نعمل بسرعةٍ كالمجانين، محاولين تنظيف الضمادات وتطهير جروحهنّ جميعاً. تحت شاش الضمادات لم تزل حروقهن حيّة، كم كان من المؤلم رؤية عذاب كلّ تلك النسوة التعيسات.

عبقت الغرفة برائحة البنزين. الكل حولي كانوا يهرعون جيئة وذهاباً، ممرضين وأطباء ومساعدين وعمال إسعاف. كل ثانيةٍ تُحسب كالعادة. ما أن انتهينا من علاجهنّ حتى جاء حاملو النقالات وحملوهنّ إلى سيارات الإسعاف، التي ستأخذهن إلى مهبط المروحيات، حيث تنتظر الطائرات.

لا تستطيع الكلماتُ التعبير عن كمّ الكرم والإيثار عند زملائي

في العيادة. نحن فريقٌ صغير، كلٌّ منّا يلعب دوراً فريداً محورياً. حالات الطوارئ هنا هي العادي، نتعامل معها كل يوم تقريباً. على مدار الخمسة والعشرين عاماً الماضية، فحصنا وعالجنا ما يقرب من ثلاثمئة ألف شخص تقريباً. كنتُ متعباً ذلك اليوم لدرجة جعلت التنفس أمراً صعباً، وشعرتُ بالغثيان، وبضيق في الصدر. أردتُ أن أصرخ. مهما حميتَ نفسك بالدروع، لن تستطيع حماية روحك. هذه حرب، حربٌ لم نسعَ لها، حربٌ نواجه فيها قوى عظمى. يقع في هذه الحرب كل يوم عشرات المصابين، وكل ما بوسعنا فعله هو الانتظار في الخنادق، حرفياً.

بعدما نُقلت آخر النساء إلى سيارات الإسعاف، عدتُ إلى إيلينا وللمعجزة الوحيدة التي أحضرها لنا هذا اليوم الشيطاني. قالت إيلينا: «اسمها (فيفور) وعمرها تسعة شهور، من نيجيريا. كانت أمُّها حاملاً بها، لكن الأم ماتت أثناء عبور البحر. اعتنَت بها واحدة من النساء منذ ذلك الحين، قالت لي تلك المرأة أنه كان على الطوف مئة وعشرون راكباً».

حاولتُ تخيل والدة فيفور وهي على وشك الموت، بلا خيار أمامها إلا ترك ابنتها في حضن امرأة غريبة لم تعرفها إلا قبل بدء الرحلة بقليل. تركَت ابنتها الغالية الصغيرة، على أمل أنها على الأقل ستنجو.

نظرت إليّ فيفور بعينيها الواسعتين، كانت في غاية الجمال. كانت في ملابس جديدة نظيفة، ألبسوها إياها بعد أن حمّموها،

فبدت شديدة الوداعة. شربت كل ما قدّموه لها من حليب فوراً، فلا بدّ أنها كانت تتضور جوعاً. والآن تلعب بدمية. حملتُها بين ذراعيَّ لساعات. شعرتُ وكأنها كانت معي طوال الوقت. انتشرت صورتي معها مثل النار في الهشيم. نظرَت الفتاةُ إلى الكاميرا وكأنها معتادة على ذلك، وكأنها عارضةٌ محترفة.

أخذتها لمركز الاستقبال، حيث يجب أن أتركها طبقاً للقانون. لكن قلبي لم يطاوعني، ووجدت في حلقي غصة. هرعتُ إلى البيت وتحدثت مع ريتا وأبنائنا. أردتُ أن أتطوع لحضانة فيفور. صبرت عليّ ريتا طويلاً، تعرف إلى أي مدى أستطيع أن أكون مندفعاً. هذه المرة لم ترفض، بل قالت: «بيترو، لا أحب أن أراك خائب الرجاء. المحكمة ستقرر من سيرعى فيفور، وهم لن يقرروا مكافأتنا برضيعة».

لكني كنتُ مصرّاً. اتصلتُ بمكتب المقاطعة، وبالمسؤولين الذين أعرفهم في الوزارة، اتصلتُ بكل من عرفت طوال سنوات عملي مع اللاجئين. كنت أعرف أن ما أطلب ربما لا يكون مناسباً، لكن الطفلة سرقت قلبي. كنت واثقاً أن الطفلة ستكون في أطيب حال معنا، سنعطيها العناية والاهتمام الذي تستحق.

في الصباح التالي، بعد الشروق بقليل، ساعدتني أخصائية اجتماعية تُدعى (كريستينا) في تجهيز طلب رسمي لإرساله لمحكمة الأسرة. تمنيتُ أن أكون أول من يتقدّم لحضانتها. وظللتُ طوال اليوم أتفحص هاتفي بحثاً عن مكالمة تمنيتُ لو جاءت من السلطات.

كالعادة كانت ريتا محقّة، لم يتصل أحد. لم ننل حضانة فيفور.

في هذه الأثناء، جهّز مركز الاستقبال فيفور لإرسالها إلى باليرمو. لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية للذهاب إلى المطار. عرفتُ أن رؤيتها بين يدي الشرطي المبتسم المسؤول عن توصيلها ستؤلمني، رغم أني عرفت جيداً أن من الخطأ التفكير في مثل هذه الأمور.

صورتُنا معاً وإعلاني عن رغبتي في الحصول على حضانتها أمام الرأي العام، جعلا الحكاية تمضي باتجاه نهاية مشرقة. اتصلت عشرات من العائلات الإيطالية بالسلطات معربة عن رغبتها في استضافة الطفلة، ولم تضطر الفتاة الجميلة ذات العينين الواسعتين للانتظار طويلاً. عُهدت إلى زوجين في باليرمو، وصار لها والدان جديدان. كانا قد انتظرا إنجاب الأطفال لأعوام، ومستعدين للتبنّي بغض النظر عن العرق أو السن أو الجنس. وكانت فيفور بمثابة هدية عظيمة لهما. لكنهما أدركا أن لا تزال هناك فرصة لخسارتها؛ إجراءات التبني غير منتهية، لا يزال على السطات التأكد بشكل نهائي من أنه لا يوجد للطفلة أقارب أحياء، بالإضافة إلى بعض التعقيدات البيروقراطية. ربما كانت أمّ فيفور تحاول التواصل مع أقارب لها في مكان ما في أوروبا مثلاً. إن اتضح أن فيفور مؤهلة للتبني، فسيكون ذلك تبنياً وطنياً، مثلما قال الرئيس (سيرجيو ماتاريلا) أثناء زيارته إلى لاميدوزا عن فيفور: «لا شكّ في إيطاليّتها».

سألت عنها أيضاً المرأة (صوفي) التي كانت تعتني بها على القارب من سريرها في المستشفى، حيث كانت لا تزال تتعافى من الحروق. أرادت أن تعرف إذا ما كانت قد استطاعت إكمال المهمة

التي عهدت بها أم فيفور إليها. طمأنها الأطباء أن فيفور صارت في أيدٍ أمينة.

بعد يومين، عدت مرّةً أخرى إلى أرض الواقع. تكررت القصة مرة أخرى، هذه المرة بمزيد من الدراما. حطّت الطائرة المروحية في لامبيدوزا حاملةً ولداً صغيراً. التقطته سفينة إسبانية من حادثة غرق، لكنه كان في حالة حرجة وربما لن ينجو إن تابع الرحلة في البحر. ذهبتُ لتلقّيه من مهبط الطائرة، كان من إريتريا، في الخامسة من عمره. اسمه مصطفى.

كان مصطفى مريضاً لدرجة أن المسعفين على السفينة عجزوا عن تركيب المحقن الوريدي له، إذ لم يستطيعوا إيجاد عروقه. درجة حرارة جسده كانت ٢٧ مئوية، كان يمكن أن يموت من انخفاض درجة الحرارة. فلم يكن أمام المسعفين خيارٌ إلا الحقن في نخاع العظم، ما يعني وضع المحقن مباشرة في قصبة الساق. إجراء مؤلم جداً، خاصة لطفل في الخامسة، لكنه ضروري لإنقاذ حياته.

أخذتُ مصطفى بين ذراعيّ وحملتُه إلى العيادة. رأيتُ في عينيه مزيجاً من الرعب والقبول، جمّده الخوف فلم تصدر عنه أية حركة. أخذ البحر منه أمَّه وشقيقتَه، وعلى العكس من فيفور، كان قد وعى بكل شيء. رأى أعزَّ الناس إليه تختفيان بين الأمواج ولا تعودان للظهور.

حاولنا مجدَّداً إيجاد وريد لتركيب المحقن، لكننا لم نستطع. حينها مدّ ذراعه الأخرى تجاهنا وكأنه أراد مساعدتنا وإرشادنا إلى

ما نبحث عنه. وكأنه يعلم أنها البديل الوحيد عن عملية حقن نخاع أخرى مؤلمة.

عبر الإيماءات، وضح لنا مصطفى أنه جائع؛ قبض يده على شكل ملعقة ورفعها إلى فمه. أحضرت له بعض البسكويت ومشروب الشوكولاتة. أطعمته بقطع صغيرة وتبعتها برشفات صغيرة لتدفّئ حلقه.

لم يبكِ، فقط ظلّ ينظر لنا بعينين متوسلتين، وكأنه يقول «ساعدوني». كان طفلاً وسيماً أيضاً. أعطته إيلينا دمية أرنب وقالت له: «هذا الأرنب اسمه بارتولو، باني بارتولو». أخذ مصطفى الأرنب وتأمّله من جميع الجهات ثم صاح مبتسماً: «باتّولو».

رغم العلاج والمحقن الوريدي، ظل مصطفى في حالة سيئة. لم نتمكن من إبقائه في لامبيدوزا، لا مناص من نقله. أخذتُه لمهبط الطائرات. سيتابع مصطفى رحلته، هذه المرة لمستشفى الأطفال في باليرمو.

ركبتُ سيارتي وقدتُها في اتّجاه العيادة، ثم شعرتُ برغبة في التوقّف والخروج. ركنتُها في جانب الطريق ومضيت لأتمشى. كان بي ألم وإحباط وعجز، احتجت لتفريغها.

أخذتُ نفساً عميقاً، والتفتُّ تجاه البحر. كان البحر يومها هادئاً بلا موج، يمتدُّ إلى آخر الأفق بلون الزمرّد الأخضر. كانت هناك مجموعة أطفال على صخرة يضحكون ويلعبون، يتحدّون بعضهم في مسابقة غطس. أطفال أقوياء أصحاء، بشراتهم تتوهج تحت شمس

الربيع. كان أطيب أوقات العام، فالفصل الدراسي يكاد ينتهي والعطلة على الأبواب. تصير الجزيرة بكاملها ساحة لعبهم طوال شهور الصيف، لا يضطرون للبقاء داخل سترات ومعاطف ثقيلة تقيّدهم، لا يضطرون لقضاء كامل أمسياتهم في البيوت يدرسون أو يتظاهرون بأنهم يفعلون. بدلاً من ذلك يستمتعون بحرية استكشاف جمال العالم المحيط، والركض بين الشواطئ والصخور والخلجان.

تذكّرتُ عندما كنتُ طفلاً، وكيف كنتُ أنتظر ببالغ الشوق شهور الصيف الدافئة، التي استطيع فيها قضاء اليوم كلّه على الشاطئ مع أصدقائي. كنا نلعب هناك كثيراً من قبل حتى أن تبدأ العطلة. كنا نذهب بعد المدرسة إلى الشاطئ، ونخلع ملابسنا كلّها إلا الداخلية منها، ونقفز فوراً إلى البحر. ورغم أننا كنا صغاراً، إلا أن أهلنا لم يقلقوا علينا قطّ، يعرفون أننا سبّاحون مهرة. كنا نتسلق أعلى صخرة نستطيع إيجادها، ونطير منها في الهواء، ونخترق المياه برشاقة الأسماك.

للحظات قليلة، جعلني البحر أهدأ. ثم عادت لي صورة مصطفى وطفولته المسروقة. لم تسنح لي الفرصة حتى بتطييب خاطره.

خرجتُ في الصباح التالي، اشتريتُ الجريدة، وجلستُ في أحد المقاهي لقراءتها. أدركتُ فجأةً كم صرتُ متورطاً في عالم لا تهمّه إلا المظاهر.

لأيّامٍ طويلة، احتلّت صورة فيفور بقعة الضوء في كل أشكال الإعلام، من الصحف إلى التليفزيون إلى المواقع الإلكترونية. أما

مصطفى فلم يُذكر إلا في سطور عابرة تتحدث عن إنقاذ طفل آخر فقد والديه في البحر، وتلقّى العلاج في مستشفى باليرمو. عندما قرأتُ تلك المقالة، شعرتُ أني صرت أداة دون قصد في أيدي هؤلاء الذين يحدِّدون ما الذي يستحق أن يصير خبراً، وما يصير قصة، وما يتحول إلى رمز وقضية. اعتنيتُ بمصطفى مثلما فعلت مع فيفور، لكن لم تكن له صورة بين ذراعيَّ. ألاعيب القدر ساخرة وغير عادلة، حتى في ما يتعلق بمثل هذه الأشياء. قد يجد مصطفى أسرة مستعدة لاستقباله فوراً، أو قد يقضي شهوراً في الانتظار، وربما سنين. في الحالتين، كلنا تورطنا في تجاهل طفل شاهد أمّهُ تغرق.

عندما نفكّر في آلاف اللاجئين الذين يبلغون شواطئنا كل يوم، لا نتذكر بسهولة أنهم أناس لهم هويات حقيقية، لا مجرد أرقام. يؤسفنا سماع كم تعذّبوا أو قُتلوا قبل أن يصلوا إلى نهاية رحلتهم. يُحزننا رؤية طفل متوفٍّ بين ذراعي مُنقذه. أحياناً تؤثّر فينا الدموع. لكن عندما ينتهي العرض، سرعان ما تجفّ دموعنا ويتداعى وقع الموقف علينا. هذه هي المشكلة التي نحتاج لمواجهتها الآن، ولكننا لم نجد بعد الوسيلة المناسبة لفعل ذلك.

في هذا الوقت، كان هناك صحفيٌّ في كل ركن من لامبيدوزا. صادف وجود أحدهم في المقهى، لاحظ أني مهموم لسبب ما، سألني عما يضايقني. أخبرتُه بما أشعر به. قال «دكتور، أتعرف كم طفلاً هناك مثل مصطفى وفيفور؟ كم طفلاً خسر والديه في البحر أو في البلاد التي مزَّقتها الحروب؟ كم منهم لا يزال يعيش في ملاجئ

الأيتام؟ أو في المبنى الوحيد الذي استطاعوا إيجاده ولم تمزقه القنابل بعد؟».

كان على خطأ. تذكرت قصة شاهدتها على قناة (RAI 3) في برنامج (ميديتيرانيو)، أحد البرامج المتخصصة في مثل هذا النوع من المحتوى. كانت القصة عن ملجأ في مدينة (حمص)، المدينة السورية التي دمَّرتها الغارات الجوية. يصل للملجأ كل يوم تقريباً طفل جديد، هو آخر من تبقّى من أسرته. طيّرت لُبّي يومها طفلة واحدة، كانت لديها القدرة على الضحك والمزاح. نظرَت مباشرة إلى الكاميرا وعدّدَت الأرقام من ١ إلى ١٠ بالإنجليزية بصوت فخور. يعتني بها وببقية الأطفال أخصائيون يعيشون في خوف دائم بدورهم من حدوث غارة أخرى في أي لحظة.

استمرَّ الصحفي في الحديث ولكني لم أعد أسمعه، ثم ذكر إحصائية شدَّت انتباهي مرّةً أخرى. «أتعلم كم طفلاً ومراهقاً يصل لإيطاليا كل عام دون صحبة؟ سبعة آلاف. منهم من خرجوا من بيوتهم وحدهم، وآخرون فقدوا أسرهم في الطريق». سبعة آلاف؟! عددٌ فلكيّ، رقمٌ يصعب تخيّله، ويصعب تقبّله.

توقفنا منذ فترة طويلة عن عدّ الأطواف المطاطية التي تصلنا. لم نعد نُفاجأ عندما نرى زوارق الإنقاذ مكتظّة باللاجئين. لكن ذلك الرقم مهمّ جداً. وصل إلى هنا سبعة آلاف طفل فقدوا كل اتصال بعالمهم الذي كانوا يعرفون.

علينا أن نفعل شيئاً بخصوص هذا الرقم.

لامبيدوزا

كثيراً ما يجلب الشتاء معه رياحاً شمالية غربية على لامبيدوزا. تقفز الأمواج لارتفاعاتٍ عالية إلى حد أنها تنثر رذاذها على أهل اليابسة، ثم تهجم على صخور الساحل ثم تخسر المعركة وتصير هباءً.

ذات مساء، قبل سنوات بعيدة، تحطّمت حاوية على صخور الناحية الشمالية من الجزيرة. أطلق البحّارة شعلات الطوارئ ليخبرونا بموقعهم، لكن زوارق الإنقاذ لم تقدر على مغادرة الميناء، فالبحر كان هائجاً لدرجة منعتهم من الوصول إليهم. كانت الحاوية تحت رحمة العاصفة وحدها.

قرّر أبي ورفاقه محاولة الإنقاذ. كان الكينيدي قارباً قوياً، وكان أبي متأكداً من أنهم قادرون على فعلها. تجمَّعنا على قمة جرف عالٍ لمتابعة قارب صيد صغير يحاول فعل المستحيل. الكلّ كان خائفاً عليهِم، واشتبكت أصابع أمي مع أصابعي بإحكام.

أصبح الكينيدي في مرمى بصر الحاوية، لكنه لم يتمكن من الاقتراب أكثر وإلا خاطَرَ بتحطّمه على نفس الصخور. ألقى أبي

ورفاقه مرساةً مدعّمة بكابل من الصلب مثبّت في الرحوية. وببطء اقتربوا من الحاوية حتى صار بوسعهم مساعدة بحارتها على القفز إلى الكينيدي. كانوا على بعد أمتار قليلة من الوصول إلى الأمان، لكن عبورهم تلك الأمتار كان أمراً في غاية الصعوبة. صاح الصيادون اللاميدوزيون بأقصى ما تستطيع حناجرهم منادين على البحارة. شاهدنا المشهد كله من موقعنا بالأعلى برُكبٍ مرتعشة وأفواه منفرجة، أكثر من مرّة كنا مقتنعين أن الكينيدي سيصطدم بالحاوية الغارقة. لو حدث هذا لم يكن لينجو أيٌّ منهم. لكن برغم الخطر الشديد، تابع أبي ورفاقه مهمتهم ولم يفكروا حتى في الرجوع.

عندما عادوا جميعاً إلى المرفأ، استقبلناهم استقبال الأبطال. أقمنا لهم حفلاً ضخماً في منزلنا في ذلك المساء، رغم أنهم كانوا متعبين. لم يتوقف البحارة المُنقذين عن شكر رجالنا الشجعان الذين خاطروا بحياتهم وهرعوا لإنقاذهم.

في الليلة الفاصلة بين السابع والثامن من مايو ٢٠١١، تلقيتُ مكالمة، لم تعد مفاجئة، من الحرس المالي: «دكتور بارتولو، نرافق بارجة في طريقها إلى المرفأ، على متنها عدد أكثر من أن يُعد». فخرجت مع رفاقي إلى فافالورو بيير.

اعتُرض طريق البارجة بالقرب من لاميدوزا. حينذاك، لم تكن عمليات البحث والإغاثة التابعة للاتحاد الأوروبي قد بدأت بعد، وكان على المهاجرين أن يقطعوا مسافات بعيدة قبل أن يجدهم أحدهم. على الرغم من ذلك، ظلت سلطات ميناء لاميدوزا

والحرس المالي والكارابينيري والشرطة والمطافئ تُحضر قوارب مليئة بالناس للمرفأ طوال الوقت. في هذه الليلة، كان الدور على الحرس المالي.

يقوم هؤلاء بعمل رائع طوال الوقت. كثيراً ما نتخيل أن العمل في القوات النظامية لا بدّ أن يكون مثيراً، كثيراً ما يكون ذلك صحيحاً. لكن نادراً ما نفكر في التضحيات التي يضطر هؤلاء الرجال إلى القيام بها، بعيدين كل البعد عن عائلاتهم. في حالة الحرس المالي، عليهم أن يكونوا جاهزين طوال الوقت للخروج إلى البحر، مخاطرين بحيواتهم لإنقاذ الناس بغضّ النظر عن حالة الجوّ. أراهم يعودون للمرفأ متعبين، بعدما انتشلوا عشرات الرجال والنساء والأطفال من المياه، ولم تعد فيهم ذرّة طاقة. كثيراً ما يبلغون القوارب في الوقت المناسب، فيشاهدونها تنقلب وكأنها تفعل ذلك بالتصوير البطيء، ملقية بعشرات اللاجئين في البحر، أو يشاهدون إصابة القارب المطاطي بثقبٍ فيفرغ هواؤه بسرعة شديدة، فيغطس مرسلاً حمولته من البشر إلى حتفهم. عليهم أن يعملوا بسرعة حتى لو كانت العاصفة في أوجها، وإلا سيفوت الأوان ولن ينتشلوا إلا جثثاً بلا حياة.

في هذه الليلة، خرج زورقا الإنقاذ في طقس شديد السوء. تسلق جنديان منهم جدار البارجة إلى سطحها، واستطاعا توجيهها ناحية المرفأ. يقود واحد من زوارق الإنقاذ طريقه، بينما يتابعهم الآخر من المؤخرة، والبحر يزأر حولهم ويزداد هياجاً.

عدد الركاب كان مذهلاً: خمسمئة وخمسين تقريباً. في المرفأ، استطعنا رؤية زورقي الإنقاذ قادمين، أما البارجة فلم تكن في مرمى البصر.

اتضح أن الرادار كان معطوباً، فبدلاً من أن تمضي البارجة آمنة باتجاه المرفأ ضاعت بين الصخور على بعد أمتار من الساحل، بالقرب من منحوتة (بوابة أوروبا) التي ترمز لترحيب لامبيدوزا باللاجئين.

أسرعنا في هذا الاتجاه فوراً، أطباء وجنوداً ومتطوعين وصحفيين، وكلّ من سمع بالخبر من أهالي الجزيرة. كنّا في أواخر الليل، والأمواج تتحطم على الشاطئ بجنون. البارجة كانت تتخبط بين الصخور بعنف، ما يجعل محاولة الإنقاذ أكثر صعوبة. قفز في الماء كل من يعرف السباحة من ركابها لإنقاذ أنفسهم. صنعنا من أنفسنا سلسلة بشرية لإحضار أولئك الذين جمّدهم الخوف وأصبحوا غير قادرين على الحركة. لن أنسى أبداً ما فعله ميمو، الذي يعمل في خدمة العملاء بالمطار، إذ قفز دون تردّد في البحر لإخراج من يحتاج واحداً تلو الآخر. لكن مأساتنا لم تعنِ شيئاً للريح والأمواج، واستمرا في معركتهما الأزلية التي تجعل أدنى حركة يقوم بها أيٌّ منّا مخاطرةً مستحيلة.

كان كثيرٌ من اللاجئين نساءً وأطفالاً، منهم طفلٌ نيجيري عمره أربعة شهور يُدعى (سيرفين). كان علينا أخذه من بين ذراعي أمّه التي تعاني في محاولتها للخروج من السفينة الغارقة. تلقّفَتْهُ صحفيّة

تدعى (إلفيرا)، وضعت قلمَها ومفكرتها جانباً لتنضم إلى السلسلة البشرية. قضت إلفيرا الليلة كلها في البحث عن أمّ الطفل، التي اتضح أنها كانت في نوبة هلع بعد أن حسبت أنها خسرت رضيعها، لكن إلفيرا وجدتها في الفجر وأعادت سيرفين لها، في لقاء فريد من نوعه بين امرأتين من عالمين مختلفين تمام الاختلاف، غارقتين في الدموع في لحظة إنسانية ساحرة. نالت إلفيرا وسام استحقاق الجمهورية الإيطالية على مشاركتها الطيبة في تلك الليلة. أسعدني ذلك، نحتاج لأشخاص ورموز مثل إلفيرا لتمثيل قضيتنا ونشر الوعي بها. نحتاج أن يتأثر الناس ويتحركوا من أجل مأساة المهاجرين، ويفهموا أنهم أناس طيّبون ممتنّون لأية مساعدة يحصلون عليها، خاصة عندما يرون أننا مستعدّون للتخلّي عن كلِّ شيء في سبيل إنقاذهم. في المقابل، يمكن أن يصيروا في غاية الإحباط والانكسار إن رفضناهم وأشعرناهم أنهم غير مرغوب فيهم.

استغرق إنقاذ الخمسمئة وخمسين ثلاث ساعات. بعدها أصبحنا جميعاً مرهقين، مُفرغين من أي طاقة. لكن على الرغم من ذلك، غمرنا ارتياح مصدره فكرة أننا استطعنا انقاذ حياة كل هؤلاء دون خسارة، أو هكذا حسبنا.

عدتُ إلى البيت بعد هذه الليلة الطاحنة، صنعت لي ريتا كوباً من القهوة وربّتت على رأسي. ثم بعد عدّة ساعات تلقّيتُ مكالمةً أخرى.

«دكتور، نحتاجك مرة أخرى عند (بوابة أوروبا)».

لم أستطع تخيّل لماذا يحتاجونني، فعندما غادرتُ كانت عملية الإنقاذ قد تمت، واستطاع المنقذون تحديد وفهم تسلسل الأحداث الذي أدى إلى الحادثة. لكن على الرغم من هذا ارتديتُ ملابسي وخرجت.

كانت البارجة لا تزال تتخبط بين الصخور، لكن البحر صار أهدأ، وخرج الغطاسون أخيراً من البحر. وعلى الشاطئ تمددت جثث ثلاث؛ جاء بهم الغطاسون من تحت عارضة السفينة، مخاطرين بحياتهم في سبيل استعادتهم. كان الضحايا ثلاثة أولاد صغار.

أخذناهم للمشرحة القريبة من المقابر. وكانت وظيفتي كالعادة تشريح جثثهم. وجدت أن واحداً منهم قد تحطمت كل عظمة في جسده، من جمجمته لأصابع قدميه.

تركتُ المشرحة محُطَّماً، شعرتُ وكأن دبابة قد مرَّت فوقي.

لم يتحدَّث الناس في حانات لامبيدوزا ومقاهيها عن شيء آخر ذلك اليوم. شُلَّت حركة الحياة اليومية في كامل الجزيرة للمساعدة في الإنقاذ. كنا مهزومين، لكننا لم نكن نعرف أن الأسوأ لم يأتِ بعد.



الثالث من أكتوبر ٢٠١٣

الثاني من أكتوبر ٢٠١٣، يكون قد مرَّ شهرٌ منذ سكتتي الدماغية. كنتُ نظريّاً لا أزال في فترة النقاهة، لكنّي عدتُ للعمل بعد عودتي للبيت بأيام. بعضٌ من عضلات وجهي لا تزال جامدة، وظلَّت رجلي تتصرف بشكل غريب من حين لحين، وتتناثر من فمي كلمات لا يمكن التفوه بها في بعض الأحيان دون إرادة مني. لكن في المجمل، كنت أتعافى.

لكني إثر عودتي إلى لامبيدوزا، وقبل عودتي للعيادة، استغرقتُ بعض الوقت في التفكير والتأمّل. تمشّيتُ حول الجزيرة، احتجتُ لشمِّ رائحة البحر مرّةً أخرى، لملء عينيّ بجمال لامبيدوزا وجموحها الذي ليس له مثيل، وكأنها قطعة من عدن. خرجتُ للبحر في قارب، ورأيت الدلافين تتقافز حولي. قابلتُ بحارة أبي القدامى وتحدثتُ معهم. كانوا رفاقي في الحياة والعمل لأعوام، قضينا أياماً طويلة ومرهقة في صحبة بعضنا. كانت تلك من أجمل خبرات حياتي، رغم أني أعمل الآن في وظيفة مختلفة، وأن طرقنا قد افترقت، إلى حد ما.

لامبيدوزا ليست جزيرة تسهل الحياة فيها. إنها بقعةٌ من الأرض انفصلت عن إفريقيا في عصورٍ سحيقة، وجنحت نحو أوروبا مع مرور الزمن. لهذا، فيها شيء رمزي من نوع ما، وكأنها بوّابة بين القارتين. شكّلت جذورها الجغرافية الاستثنائية مصيرها، ولم تكتفِ الحركات التكتونية بتحديد مصير الأرض فقط، وإنما تحديد مستقبل الناس فيها أيضاً.

كان الجوّ معتدلاً في تلك الليلة الخريفية. استقبلَت الجزيرة دفعتين كبيرتين من المهاجرين، وكانوا جميعاً سوريين.

سبَّب وصولُهم بعض المشاكل للمسؤولين الإيطاليين. كان على المسؤولين في مركز الاستقبال أخذ الاختلافات العرقية والدينية بين المهاجرين في الاعتبار. النساء والأطفال دون زوج أو أب لا يمكن إسكانهم مع رجال أو عائلات أخرى. تلك كانت مسألة مهمَّة لا يمكن تجاهلها. لهذا كان السوريون الجدد في صباح ذلك اليوم واقفين في المرفأ، في انتظار قرار الإدارة بخصوص كيفية تسكينهم. وهذه كانت بداية أكثر الأيام حزناً في تاريخ لامبيدوزا.

في السابعة والنصف صباحاً من ثالث أيام أكتوبر، تلقَّيتُ مكالمةً تليفونية من المسؤول الأول للمرفأ. «دكتور، أرجوك تعال إلى المرفأ بسرعة. هناك حادثة غرق وكثير من الوفيات».

«أنا هنا بالفعل، لم أغادر بعد. انتهينا لتونا من فحص المجموعتين الوافدتين. سأنتظرك هنا».

مرَّ ربع ساعة، ثم رسا في المرفأ قارب طوله ثمانية أمتار. كان (قمر)، قارب (فيتو فيورينو). أعرف فيتو جيداً، صياد لامبيدوزي يأخذ زوّار لامبيدوزا معه في البحر أثناء موسم السياحة، مثلما كنتُ أفعل في طفولتي على البيلاكيرا. في الليلة السابقة، أخذ فيتو معه ثمانية أشخاص على متن (قمر)، بينهم امرأة تشارك ابنتي غراتسيا الاسم، عادة ما كانت تأتي إلى لامبيدوزا كلَّ سنة في مثل هذا الوقت لزيارة شقيقتها التي تدير متجراً هنا. كان يمكن رؤيتها تبكي من على بعد.

خرجوا في الأمس في رحلة صيد ليلية إلى (تاباكارا)، خليج طبيعي جميل لم يفسده الزمن. عندما يحل الظلام هناك وتظهر النجوم، لن يمكنك نسيان المشهد ما حييت. عادة ما يقضي السيّاح الليلة بأكملها هناك، وينامون في القارب، ثم يعودون للمرفأ قبل موعد الإفطار.

في فجر ذلك اليوم، أيقظ أحد الرجال غراتسيا وقال أنه يسمع أصواتاً غير بعيدة، أصوات تشبه الصراخ. قالت: «لا بد أنها النوارس، أو ربما سياح آخرون أكثر ضجيجاً منّا». لم يقتنع الرجل، وطلب من فيتو أن يتوجه ناحية الأصوات التي سمع. وكانوا كلما اقتربوا ازدادت الأصوات وضوحاً، بالتدريج ظهر للعيان مشهدٌ شنيعٌ: سطح البحر ممتلئٌ بالناس الذين يصرخون طالبين المساعدة، وبأجساد بلا حياة. ولا علامات من أي نوع على وجود قارب قريب.

لم يكن من الواضح لمَ غرق القارب بالقرب من مدخل الميناء. في المياه كان أكثر من خمسمئة شخص في حالة من الهلع، بينهم وبين الشاطئ أمتارٌ قليلة. حاول بعضهم السباحة إلى الشاطئ، وغرق البعض فوراً، وآخرون علقوا في أماكنهم غير قادرين على الحركة. جرفت التيارات الأحياء والغرقى في اتجاه جزيرة الأرانب، حيث وجدهم فيتو وضيوفه.

عمّت الفوضى سطح قمر. تدلى الركاب من القارب، محاولين انتشال أكبر عدد ممكن من الناجين. ألقى أحدهم بنفسه في البحر وأخذ يجر اللاجئين تجاه قمر، حيث يلتقطهم رفاقه إلى السطح آمنين. أنقذوا في ثلاث ساعات تسعةً وأربعين شخصاً. لو التقطوا شخصاً واحداً آخر كان قمر ليغرق أيضاً بفعل الوزن الزائد.

وقود الديزل كان يغطي جميع المُنقذين. أمكن علاج البعض في المرفأ، أما البقية فأرسلناهم إلى غرفة الطوارئ فوراً.

لم تستطع غراتسيا التوقف عن النحيب. قالت: «البحر مليء بالجثث»، بلهجة من يعجز عن تصديق ما رآه لتوه.

بدأنا في استيعاب حجم الكارثة.

مرَّت دقائق، ثم وصل قارب صيد آخر. قارب كابتن (دومينيكو)، كان يتخبّط بينها يحاول الرسوّ. ساعدنا طاقمَه في إرسائه، صعدنا إلى سطحه. كان دومينيكو يرتجف. أعرف أن دومينيكو بحارٌ خبير رأى الموت في حياته مرّاتٍ عديدة، ولكني لم أرَه في مثل تلك الحالة من قبل.

قال: «بيترو، لم يحدث لي في حياتي شيء مثل هذا من قبل». كان على سطح قاربه عشرون ناجياً، جميعهم في حالة غاية في السوء. على عكس قمر، لم يكن في قاربه سلّم يُسهِّل على الناجين تسلّق سطحه. لأخذهم إلى القارب، كان يتدلى من السطح بينما يمسكه البحارة من رجله، ويحاول انتشالهم من الأذرع. «انزلق الكثيرون من بين أصابعي بسبب الديزل الذي يغطيهم، ربما هم ملوثون بالزيت أيضاً... انزلقوا للقاع يا بيترو، ولم يعاودوا الظهور. حاولت إنقاذهم، لكني لم أستطع. كان هذا مروِّعاً».

في شبكة صيد دومينيكو، كانت هناك أربعة جثث. فحصتهم واحداً إثر الآخر. ثلاثة منهم ميتون منذ عدة ساعات، والرابعة كانت شابة صغيرة. لم يكن في استطاعة دومينيكو التوقف عن الحديث عما رأى. «البحر مليء بالجثث يا بيترو»، قالها باكياً، «أجساد ميتة تطفو في كل مكان. وأذرع كل من تبقوا على قيد الحياة كانت تحاول إمساكي».

بينما كان يتحدث، كنت أحمل رسغ الشابة الصغيرة بين أصابعي، لم تصل إلى مرحلة التصلب الرمّي بعد، ما يعني أنها قد فارقت الحياة منذ قليل. ثم شعرتُ بنبض، «اسكت قليلاً، أهدأ». ركّزتُ أكثر، كانت هذه بالتأكيد دقّة قلب، تكاد تكون غير مسموعة، لكنّي شعرتُ بها.

ثم نبضةٌ أخرى.

لم تكن ميّتة، حملتها بسرعة بين ذراعيّ، وبقوة تفوق قدرة

البشر، حملنا دومينيكو معاً إلى خارج القارب، إلى المرفأ. كان علينا أن نسرع.

في العيادة، كنا نتحرك كالمحمومين طوال العشرين دقيقة التالية. خلعنا عنها ملابسها، وأوصلنا بها الأنابيب التي تشفط المياه المالحة والديزل من فمها ورئتيها. ثم قمتُ أنا وطبيب التخدير بإجراءات الإنعاش القلبي الرئوي عليها: ضغط، نفس، تهوية. ضغط، نفس، تهوية. سلسلة من الضغطات تلو الأخرى، والأدرينالين يصول ويجول في دمائنا.

أخيراً رأينا على الشاشة نبضة، عاد قلبها للنبض مرة أخرى. فعلها ببطء ثم أخذ يتصاعد إلى الوضع العادي. كان هذا مستحيلاً، كان معجزة. بكينا من الفرحة.

عادت (كيبرات) -ذلك كان اسمها- للحياة بنجاح. نقلناها إلى مهبط الطائرات في سيارة إسعاف، ومن هناك اخذتها مروحية إلى باليرمو.

شعرتُ بخضّم من المشاعر المتضاربة بداخلي لم أعرف مثلها طوال خمسة وعشرين عاماً من إجراء الإسعافات الأولية. لكن لم يكن هناك وقت للاحتفال. أرسلت كل قوات الجزيرة النظامية قوارب آلية لمسرح الحادثة. كل مُعدّة وكل رجل أمن كان هناك.

عدتُ إلى المرفأ جاهزاً لعلاج ناجين آخرين، لكن الآن لم تعد القوارب تُحضر إلا الموتى. عددنا ١١١ منهم خلال عدة ساعات.

اصطفت حقائب الأجساد السود والخضر في فافالورو بيير.

درتُ حول أول حقيبة لفترة متردداً في فتحها، ثم فتحتُها أخيراً. كان ولداً صغيراً، يرتدي سروالاً قصيراً أحمر، وكأنه كان متأنقاً لليوم الأول من حياته الجديدة، لكن بدلاً منها اصطاده خفر السواحل من المياه بخطّاف القارب، وهو أداة بسيطة تستخدم عادةً لربط القوارب ببعضها أو لاستعادة ما وقع من القوارب إلى البحر. لكن في ذلك اليوم، استخدامها الوحيد كان في صيد الجثث.

كان الفتى في حالة ممتازة كما لو أنّه على قيد الحياة. حملتُه بين ذراعيَّ، هززتُه برفق ليستيقظ، وتحسَّست بحثاً عن نبضة. لكن هذه المرة لم تكن هناك معجزات.

بدأتُ في فحص بقية الحقائب، فتحتها واحدةً تلو الأخرى. عشرون منهم على الأقل كان بين أسنانهم صليب، وكأن آخر ما فعلوه كان تسليم أنفسهم للرب. منذ ذلك الحين، حلمتُ كثيراً بتلك الشفاه المنغلقة على الصلبان.

كانت إحدى النساء قد وضعت طفلاً للتّو، لم يُقطع الحبل السري بعد. وضعناها وطفلها في التابوت نفسه، مع دمية دب محشوة.

أين نستطيع إيجاد توابيت كافية؟ وأين سنضعهم؟ العمدة جيسي نيكوليني كانت معي في المرفأ، طلبنا شاحنات تبريد وتوابيت، ووضعناهم في حظيرة الطائرات في المطار. لم يكن لدينا خيارٌ آخر.

مرّت خمسة عشر يوماً وليلة.

عادت زوارق الإنقاذ محمّلةً بالجثث. فحصَت الغواصات قاع البحر وجالت خلال الحطام باحثة عن أجساد الرجال والنساء والأطفال التي ترقد تحته. في المرفأ وفي حظائر الطائرات، فحصنا أجزاء الأجساد وشظايا العظام في محاولة لتحديد أي منهم ينتمي لأي من الضحايا الثلاثمائة وثمانية وستين. أحضرنا دعماً من رجال الطبِّ الشرعي، ساعدونا في ترتيبهم في التوابيت. لم تكن هناك إمكانية للقيام بهذه المهمة المفجعة وحدنا، خاصّة بعد كلِّ ما مررنا به.

جاء فريق من الأطباء النفسيين لمساعدة الناجين والعاملين في الطوارئ الذين شاركوا في الإنقاذ. بدأوا عملهم مع الغطّاسين، الذين نالوا أكبر قدر من الصدمة. كان عليهم التأقلم مع البحث عن أولئك الذين حُشروا داخل السفينة، والتعامل المباشر مع عدد كبير من جثث الصغار.

أنا أيضاً كان يمكن أن يساعدني بعض الدَّعم النفسي، لكن لم يكن لي فيه نصيب. كنتُ متألمّاً وأشعر بالوحدة، ولكني لم أستطع السماح لنفسي بالتداعي والانهيار. ما زال هناك الكثير مما يجب فعله.

مشهد حقائب الجثث المتراصة في حظائر الطائرات كان يكسر القلب، لكن وضع تلك الأجساد في التوابيت وإحكام غلقها عليهم كان أسوأ بكثير. اتخذتُ أنا والعمدة وكاهن الأبرشية قراراً غير متوقَّع. أرسلنا عدداً من الحافلات إلى مركز الاستقبال لنقل الناجين من الحادثة، ليكون بوسعهم قول كلمات الوداع لأصدقائهم وأقاربهم الراحلين.

عندما جاؤوا، انتحبوا بهدوء. وقف كل منهم أمام تابوتٍ وبكاه، لم يشكّل اختيار التابوت لهم فارقاً، أي تابوت كان يؤدي الغرض. ثم شرع أحدهم في النّواح.

للحظةٍ، تردَّد الصدى الحزين في كل أنحاء المقبرة المرتجلة. استيقظنا عندها من نوعٍ من السُبات كنا غارقين فيه. العالم الذي نعيش فيه كان حقيقياً أكثر من اللازم، حينها فقط بدأنا نراه بوضوح.

في الأيّام التالية، استمرَّ العذاب. كثيرٌ من اللامبيدوزيين قرروا السماح لأجساد الضحايا أن تُدفن بجوار أجساد أحبّائهم في المقابر. في المرفأ، ألقى لاجئون بأجسادهم فوق توابيت أمّهاتهم وآبائهم وأشقّائهم، محاولين منع الرافعات من نقلها إلى القوارب التي ستحملها إلى صقلية. جاء الأقارب من جميع أنحاء أوروبا، وطلبوا أخذ الصور الفوتوغرافية بجوار الأرقام التي حملَتها التوابيت التي يرقد فيها أقاربهم.

في مواجهة الكارثة غير المسبوقة، احتاجت لامبيدوزا كلَّ ذرة طاقة تملكها. استجابت الجزيرة بطاقة إيثارية هائلة. عددٌ كبير من العائلات فتحت بيوتها للناجين واعتنت بهم. لكننا أيضاً كان علينا التعامل مع بيروقراطية لا تبالي. في البلدية، أخذَت العمدة تحاول نشر الوعي بالوضع في الجزيرة للرأي العام طلباً للمساعدة، مثلما فعلتُ أنا في العيادة.

لأشهرٍ طويلة، لم يكن باستطاعتي التفكير في أيّ شيء آخر.

عرفنا كلّنا أن ما حدث في الثالث من أكتوبر، قد غيَّر حياتنا إلى الأبد.

في العام التالي، قمنا بإحياء ذكرى الحادثة، ولم يحدث هذا دون مناظرات وجدالات عامة. كانت مناسبة مثيرة للمشاعر. عاد كثير من المهاجرين الذين خرجوا بعدها إلى باقي أنحاء أوروبا إلى لاميدوزا لحضور الاحتفال الحزين. استقبلهم السكان المحليّون الذين كانوا قد استقبلوهم واعتنوا بهم في المطار. تبادلوا العناق والدموع. كانت لحظات حارّة.

لكن ليس للجميع.

وقفتُ في الركن أشاهد الأبواب الأوتوماتيكية لقاعة الوصول تنفتح وتنغلق. شاهدتُ المهاجرين يهرعون إلى العائلات التي تبنَّتهم مؤقتاً في الأيام التي تلت حادثة الغرق. مع كل مرَّةٍ ينفتح الباب كان أملي يتضاءل أكثر قليلاً، عرفتُ أن أمنيتي لم تتحقق. لم تعد كيبرات. كنت لأستقبل في حضني الفتاة التي انتزعناها من فك الموت. ربما لم تحب أن تعيش مرة أخرى ذكرى المعاناة، وقرّرَت البقاء في السويد.

شعرتُ بموجةٍ من الحزن، ثم ذهبتُ مخترقاً جحافل المصورين وميكروفونات المراسلين. عدتُ للبيت وحيداً.

أبناء البحر ذاته

غرفة القيادة هي كل ما تبقى لي من الكينيدي، قارب الصيد الذي أطعمني وأهلي لأربعين سنة. حافظ أبي عليه حتى مات. كان السرطان يقوم بعمله في جسد أبي بالفعل عندما قرر أن يحافظ على الكينيدي من مرور الزمن، فقام بتجديده. وتركيب معدات كهربائية جديدة وبنى كابينة أوسع.

كان الكينيدي بيته. قضى فيه أياماً وليالي هادئة صاخبة لا تُعدُّ ولا تُحصى. كان القارب عالمه كلَّه، لم يكن ليهجره أبداً.

اضطررنا لبيع القارب بعد وفاة أبي. عندما جاء الصيادون من مدينة (أنسيو) لشرائه، بكيتُ على المرفأ مثل طفل.

تعلَّمتُ على الكينيدي كيف تكون بحّاراً وصيّاداً، وتدرَّبتُ هناك على ترويض معدتي ضد دوّار البحر. عرفتُ هنا أوَّل مرة معاني التعب والإيثار. وهنا كانت أجمل وأصدق لحظاتي مع أبي. أرادني أن أكون قويّاً بلا خوف. أسوأ لحظاتي كانت أيضاً هنا، عندما كدتُ أن أخسر حياتي، وعرفتُ هنا أيضاً معنى الجوع الحقيقي،

وتعلَّمتُ أن أحتفل بالصيد الثمين كما يستحق. فوق كل ذلك، تعلَّمتُ أن أحبَّ البحر، وصار ذلك غريزةً جوهرية في تكويني، لم يعد بوسعي العيش بدونه.

كان البحر بالنسبة لأبي أيضاً كل شيء. عندما تمكَّن منه المرض، توقّف عن الخروج في الكينيدي وعاد إلى بيلاكيرا، الذي كان أصغر وأيسر في التحكم. وبما أنه لم يعد بوسعه فعلها وحيداً، كان يطلب مني أن آخذه للمرفأ وأساعده للصعود على القارب. لكنه لم يطلب مني قطّ مصاحبته في البحر. وعلى أي حال لم يعد بوسعي فعلها، فالعيادة صارت تحتاجني.

وكما هو متوقع، يعود ببيلاكيرا مليئاً بالسمك. وصف الناس أبي بالعناد، وقالوا إنه يجب عليه عدم الخروج في البحر بحالته هذه. حتى أنا سألته لماذا يستمر في الصيد برغم أن قوَّته لا تكاد تحتمل. «لأنه سلاحي الوحيد في مواجهة الوحش الذي يلتهمني؛ لأن الصيد حياتي».

وهكذا تابعتُ مساعدَته. عندما يعود للميناء بغنيمته، يكون وجهه عادة أبيض يغطيه الملح، تتناثر مياه البحر على الوجه الذي تحرقه الشمس، وتترك خلفها قناعاً من الملح. قناعاً ينبّئ ولا يخبِّئ، قناعاً يُظهر أصالة الوجود ولا يترك مجالاً للتزييف.

أرى القناع نفسه على وجوه المهاجرين اليائسين، الذين قضوا أياماً طوالاً في البحر، تتقاذفهم الأمواج. كلما رأيتهم بهذا الحال، أفكِّر في أبي. كلُّهم أبناء البحر ذاته.

كان أبي يعود للبيت كلَّ مرَّة متعباً، لكنه لم يعُد مهزوماً قطّ. الآلام التي يشعر بها تزداد سوءاً، والدموع التي تجد لها مساراً أحياناً على وجنتيه، تتحلّل ويبقى ملحُها على بشرته. كانت تلك هي دموع الملح.

في النهاية، لم يعد يسألني المساعدة في الذهاب إلى المرفأ. فاز السرطان. وذات صباح سألني سؤالاً: «بيترو، أحتاج إلى طلب شيء أخير منك»، صوته كان ضعيفاً، «خذ إكليلاً من الورد وألقه في البحر من أجلي».

قبَّلني، وأغلقَ عينيه.

في أحد أيام الجنازة، ذهبتُ إلى بائع زهور وطلبتُ منه أن يصنع إكليلاً ملوناً، بكلمات بسيطة على شريطه: «من أجلك يا أبي».

صعدتُ على متن بيلاكيرا وشغَّلتُ المحرِّك. خرجتُ لقلب البحر الواسع المفتوح. أخذتُ إكليل الورود، ورميتُه في قلب المياه. لبَّيتُ أمنية أبي.



شكر وتقدير

فكرة سرد أحداث السنوات الخمس والعشرين السابقة من عمري وعملي، جاءت من مقابلة مع (ليديا تيلوتا) في عيادة لامبيدوزا، بينما كنا ننظر لصور (نينو راندازو) التي التقطها لأحداث الثالث من أكتوبر ٢٠١٣ الحزينة. بدأت هذه الصور محادثة لم تنتهِ حتى اليوم، عزَّزها جيانفرانكو روزي وفيلمه العظيم (حريق في البحر).

أحب أن أشكر كل أفراد القوات النظامية الذين عملتُ معهم طوال تلك الأعوام: خفر السواحل التابعين لسلطات الميناء والحرس المالي والشرطة والكاربيناري والمطافئ. هؤلاء الشباب هم «ملائكة البحر الحارسين». بشجاعة وإخلاص وإنسانية، ينقذون الرجال والنساء والأطفال في شتى أنواع الطقس، ويغطسون لأعماق البحر لاستعادة أجسادهم الضائعة.

أحبّ أن أشكر رفاقي في العيادة، الذين يساعدونني ويساندونني كل يوم، والمتطوِّعين كذلك الذين يرحِّبون باللاجئين في فافولور بيير، والمترجمين الكثّر.

أحب أن أشكر أيضاً سكان لامبيدوزا، الذين كانوا وسيظلّون أناساً كرماء مُرحِّبين دوماً.

وشكراً لـ(باولا ماسيلا)، هي تعرف السبب.

شكراً لعائلتي: إلى رفيقة عمري ريتا، وغراتسيا وروزانا وجياكومو، أبنائي، الذين يشجِّعونني ويدعمونني في عملي وفي خياراتي.

شكراً لسلطات الصحة العامة في باليرمو، الذين نعتمد عليهم في توفير ما نحتاج، سواء كان ذلك معدّات أو قوة عاملة.

أخيراً، أحبّ أن أشكر صديقي (دون ميمو)، الذي يعمل في صمت.

بيترو بارتولو

شكر خاص لـ(بيترو بارتولو) لائتمانه لي على حكايته، وإسراره لي بذكرياته المتراكمة عبر السنين. حكى لي كل قصة بصوتٍ غنيٍّ بالمشاعر غير المفلترة، اتَّسمت شهادتُه بالصدق والقوّة. عملية دمج وترتيب وتسجيل هذه الحكايات كانت صعبة، احتجنا لمراجعتها عدة مرات مع ريتا، الزوجة الوفية إلى الأبد.

أشكر أيضاً محرِّرتنا (نيكوليتا لازاري)، التي أرشدتني بخبرتها لكيفية التعامل مع عدد لا يحصى من العقبات، متجاوزة حتى ما تتطلّبه منها وظيفتها.

أحب أن أشكر أيضاً «أسرتي الكبيرة» كلها، الذين دعموني وألهموني وشجعوني على العمل طوال الشهور الماضية.

شكراً لرفيق عمري (سالفو) وابني (جوزيبي)، كان نقدهم لي دائماً مفيداً. شكراً لأبي الثاني وأخي (نينو). أختي (كارميلا) وصديقتي (سيلفانا) كانتا مشتركتين في بداية هذه الرحلة، تعلمان ما أقصد.

أحب أن أشكر أيضاً شبكة (R.A.I) وقناة الأخبار (T.G.R) على سماحهما لي بتغطية قصص الفارّين من الحرب والديكتاتورية والبؤس، طوال تلك السنوات، على جانبي البحر المتوسط. بسببهم قابلتُ أشخاصاً مميَّزين مثل د.بارتولو.

والشكر لـ(إزيو بوسو)، الذي كانت موسيقاه رفيقتي طوال رحلتي مع هذه الصفحات.

هذا الكتاب تسجيل لرواية شاهد عيان، نُقلت إلى الورق مثلما قيلت، بأبيضها وأسودها، بلا تنقية ولا زخرفة. ولم يكن ذلك سهلاً.

ليديا تيلوتا

خطابات إلى بيترو بارتولو

عزيزي دكتور بارتولو، ما قلتَه في التليفزيون لمسني وأوجعني. كنتُ طفلةً أثناء الحرب العالمية الثانية، والمقاومة كانت شديدةً في قريتي. شهدتُ أنا وأخي إعدام ثمانية عشر شاباً. انتظرتُ لفترة قبل إرسال هذا الخطاب لأني لم أكن متأكدة إن كان يجب عليّ فعلُ ذلك، لكني الآن أنا كذلك. لقد أرفقتُ بالخطاب خمسين يورو لشراء الحلوى من أجل صغار المُنقذين، من جدَّتهم الإيطالية العجوز. سامحني لأني كتبتُ لك مباشرة يا بني. ليباركك الرب، وشكراً لك على كل شيء.

(س)

رؤية عينيك على شاشة التليفزيون هزَّتني، حدث ذلك عندما فكَّرتُ في كمِّ الألم الذي لا بدّ أنك قابلته والحزن. أتمنى لو كان بوسعي أخذ يدك في يدي ومعانقتك عناقاً طويلاً. طالما ظلَّ هناك أناسٌ مثلك على هذه الأرض، يبقى الأمل. أتمنى لقاءك

شخصياً، لكن للأسف نحن بعيدون عن بعض كثيراً. أنا معك بقلبي. محبتي.

(م)

استمعتُ بانتباه لكلماتك الخارجة من القلب عن أناسٍ مثلنا، بأيادٍ وأرجلٍ وعيونٍ وأفواهٍ وقلوبٍ مثلنا. حظُّهم أقلُّ من حظنا، لكن في ما عدا ذلك يشبهوننا في كل شيء. تحدَّثتَ عن أطفالٍ ونساءٍ ورجالٍ عانوا ومرّوا بآلامٍ عظيمة، لم يسبِّبها الربّ، وإنما وحوشٌ أقلُّ من البشر. جعلتَنا نرى كثيراً من التفهّم والتضامن والحساسية. أنا فخورٌ بك وممتنٌّ لك بعمق، على إيثارك وحبك لأناس لم يحبّهم الآخرون.

(أ)



- **بيترو بارتولو**، طبيب من لامبيدوزا. كان مسؤولاً عن عيادة الجزيرة منذ 1991. اعترافاً بعمله في توفير العناية الطبية الطارئة للّاجئين، نال (وسام استحقاق الجمهورية الإيطالية) عام 2016. وتلقّى جائزة (سيرجيو فييرا دي ميلو) في مدينة كراكوف عام 2015. ثم جائزة (دون جوزيبي ديانا)، وجائزة (روبرت أف. كينيدي) لحقوق الإنسان في إيطاليا. عام 2017 عُيِّن سفيراً للنوايا الحسنة لليونيسيف. ظهر في فيلم للمخرج (جيانفرانكو روزي) بعنوان (حريق في البحر)، فاز الفيلم بجائزة (الدب الذهبي) في مهرجان برلين السينمائي الدولي عام 2016، وترشَّح لجائزة الأوسكار عن أحسن فيلم وثائقي في عام 2017.

- **ليديا تيلوتا**، صحفيّة في (TGR RAI)، برنامج إخباري إيطالي محلّي. قدّمَت أخباراً عن المهاجرين الذين يصلون إلى لامبيدوزا، وعن أولئك الذين يفقدون أحبّائهم في البحر. تدير برنامج (ميديتيرانيو) من باليرمو على قناة (RAI 3)، الذي يُقدِّم أخباراً وحكاياتٍ من البلاد على جانبَي البحر المتوسط.



"عندما يعود للميناء بغنيمته، يكون وجهه عادةً أبيض يغطيه الملح، تتناثر مياه البحر على الوجه الذي تحرقه الشمس، وتترك خلفها قناعاً من الملح. قناعاً ينبئ ولا يخبئ، قناعاً يُظهر أصالة الوجود ولا يترك مجالاً للتزييف. أرى القناع نفسه على وجوه المهاجرين اليائسين، الذين قضوا أياماً طوالاً في البحر، تتقاذفهم الأمواج. كلما رأيتهم بهذه الحال، أفكّر في أبي. كلّهم أبناء البحر ذاته. كان أبي يعود للبيت كلّ مرّة متعباً، لكنه لم يعُد مهزوماً قط. الآلام التي يشعر بها تزداد سوءاً، والدموع التي تجد لها مساراً أحياناً على وجنتيه، تتحلّل ويبقى ملحها على بشرته. كانت تلك هي دموع الملح".

****

في السنوات الأخيرة، تردّد بكثرة في عناوين الأخبار اسم لامبيدوزا، الجزيرة الصخرية الواقعة على بعد مئة ميل من ساحل إيطاليا الجنوبي، بعد أن صارت الوجهة الأكثر شيوعاً لمئات الألاف من لاجئي إفريقيا والشرق الأوسط الهاربين من الحروب الأهلية والإرهاب، الساعيين لحياة جديدة في أوروبا. عمل د. بيترو بارتولو، الذي أدار العيادة الطبية الوحيدة في الجزيرة على استقبالهم ورعايتهم، أحياءً وأمواتاً، لما يزيد على ربع القرن.

كتاب "دموع الملح" هو سيرة ذاتية مؤثرة لحياة د. بارتولو وعمله ومواجهته لواحدة من أسوأ المآسي في زمننا. يسرد د. بارتولو ما لا يمكن نسيانه من حكايات الألم والأمل، حكايات أولئك الذين ضاعوا وغيرهم ممن نجوا. دموع الملح هو بورتريه أدبي حميم لرجل استثنائي رسالته واضحة: "لم ولن نسمح لمخاوفنا أن تحكمنا".

الناشر



بيترو بارتولو . ليديا تيلوتا

دموع الملح

قصة طبيب





www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com